

الإسلام

(تعريف موجز)

قراءة معرفية للإسلام مع حوارية علمية لما يثار حوله من آراء المستشرقين وأهداف المستكبرين

الدكتور مصطفى السباعي

دار الوراق للنشر والتوزيع

دار النيربين للطباعة والنشر والتوزيع



(تعريف موجز)

قراءة معرفية للإسلام مع حوارية علمية لما يثار حوله
من آراء المستشرقين وأهداف المستكبرين

الدكتور مصطفى السباعي

دار الوراق
للنشر والتوزيع

دار النيرين
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى لدار الوراق

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



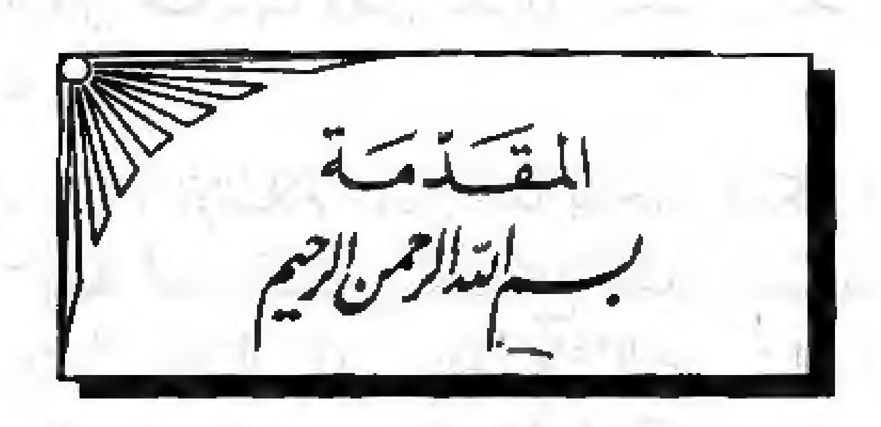
بيروت ـ هاتف وفاكس ٠١/٦٦٤٤٩٩ ـ ص ب: ١٤/٦٣٨٠
E.Mail:msibaie @hotmail.com
E.Mail:warrak @maktoob.com

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ الرمز ١١٣٩١ ص ب ٦٤١

هاتف : ٤١٦٢٥٢٧ ـ فاكس ٧١٧٠٦٤٢



ص.ب : ٧٦٠٣ ـ دمشق ـ شارع الفردوس
هاتف : ٢٢٣٠٩١٤ ـ فاكس : ٢٢٣٩٩٩٦



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين وبعد.

فإن من مسرات دار الوراق أن تتابع مسيرتها التي تعاهدت فيها مع القراء على نشر الأعمال الكاملة للدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو سلسلة من المقالات نُشرت في مجلة حضارة الإسلام الدمشقية بغية نقل معانيها إلى الشعوب العربية والإسلامية، وقصد الكاتب منها التعريف بالإسلام أهدافاً كبرى وغايات والتدليل على جدلية العلاقة بين الدين والعرب وأثر الإسلام على العرب خاصة والعالم بشكل إجمالي كما تعرض المؤلف لقضايا كثيرة مبثوثة في ثنايا هذا الكتاب.

ونحن إذ ننشر هذه الأوراق فإننا نطرح أنْ نقدم الإسلام من خلالها وفق تصور إنساني بعيد عن الطوباوية...

إذ ميلاد الإسلام كان إيذاناً بتحرر الفكر وتحرر الإرادة، وقد أضاء العربي مصباح عقله فغدا صاحب هدف وفكرة بعد أن عاش ردهاً من الزمن شاعراً ينظم القصائد (الرومانسية) ويغيب عن الواقع.

والجديد في كتابنا أنه يتمتع بقدرة فائقة علىٰ التحسس بمشكلات الحياة المعاصرة وما ينسجه البعض حول الإسلام من شكوك.

يثير د. السباعي بعضاً منها فيقول: (تعالوا ننظر إلىٰ الإسلام نظرة عميقة عجلىٰ لنرىٰ هل تتحقق فيه شرائط الدين العالمي التي ذكرناها؟ أي هل هو واضح الأهداف والمعالم في جميع الأذهان؟ وهل كفلت أهدافه تحقيقَ السعادة لجميع الشعوب بلا استثناء؟ وهل فيه من المرونة ما يجعل تطبيقه وتحقيقَ أهدافه ممكناً في كل الأزمنة والعصور).

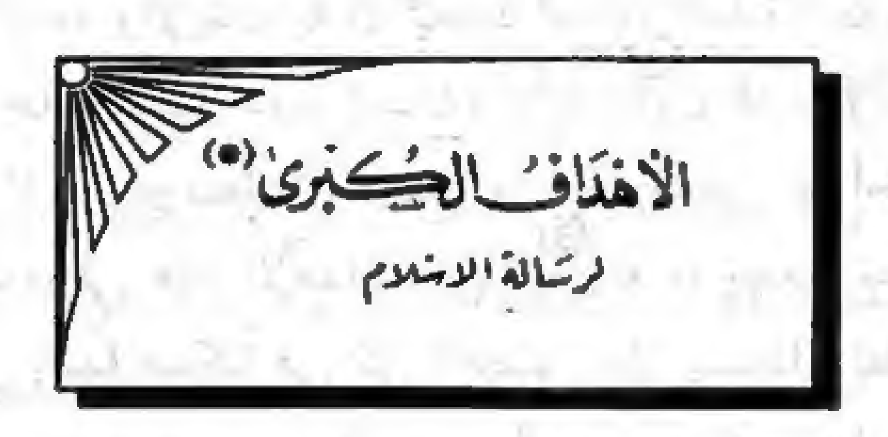
* * *

تعرّض الإسلام لتخاذل واضح من أبنائه وهجوم فاضح من أعدائه وعلى الرغم من تجهم كثير من

المؤسسات الرسمية له، فإنه بقي صامداً رائع البيان والأحكام ملفتاً كألوان الفراشة لكنه منيع الحمىٰ كضرغام الغابة.

إننا نؤكد على أن الإسلام سيبقىٰ المحور الناظم للأمة الإسلامية والعربية وهو الدواء الذي يتناسب مع مجتمعاتنا وكل بحث عن وسيلة أخرىٰ للخروج من المأزق دون الرجوع إليه هو ضرب في تيه وبقاء في دوامة النفق المظلم المخيف فإلىٰ كل منتمٍ إلىٰ الإسلام أو جاد بالاطلاع على أسراره ومقاصده نقدمّ هذا الكتاب دليلًا تعريفياً موجزاً وقراءة معرفية للإسلام مع حوارية علمية لما يثار حوله.

الناشر



الأهداف الكبرى (*)

لرسالة الإسلام

لكل ديانة أي ديانة كانت سماوية أم أرضية أهداف وغايات تحث أتباعها على الوصول إليها، وديانات الله السماوية برغم تباعد الزمن فيما بينها، واختلاف البيئات التي نشأت فيها تهدف إلى غايات متحدة ترمي كلها إلى خير الإنسان وسعادته، بيد أن الديانات السابقة للإسلام لم تكن عامة لجميع البشر، ولا كانت ديانات ختامية يجد الناس فيها كل عوامل سعادتهم، ولذلك حكم وعوامل شتى لا مجال للحديث عنها الآن، وقد شاءت إرادة الله لأسباب رتبها وعلم الناس بعضها أن يكون الإسلام خاتمة الديانات والشرائع فلا دين بعده، كما ادخر الله شرف ختم الرسل والأنبياء لمحمد ﷺ فلا نبي بعده أبداً.

(*) مجلة حضارة الإسلام - العدد الأول والثاني - ربيع الأول ١٣٨٦هـ - حزيران ١٩٦٦ - السنة السابعة.

إن من شرائط الدين العالمي الذي يطلب من جميع الناس اتباعه والإيمان به أن يحدد أهدافه العامة تحديداً لا يلتبس على إنسان دون إنسان، وأن تكون هذه الأهداف مسعدة للناس جميعاً فلا تسعد بها أمّة وتشقى بها أخرى، وأن يكون في هذه الأهداف من المرونة ما يجعل تطبيقها والسعي إليها ممكناً في كل العصور فلا يستطاع تطبيقها في عصر دون عصر. ولا يعسر العمل بها في زمان دون زمان.

فتعالوا ننظر إلى الإسلام نظرة عميقة عجلى لنرى هل تتحقق فيه شرائط الدين العالمي التي ذكرناها؟ أي هل هو واضح الأهداف والمعالم في جميع الأذهان؟وهل كفلت أهدافه تحقيق السعادة لجميع الشعوب بلا استثناء؟ وهل فيه من المرونة ما يجعل تطبيقه وتحقيق أهدافه ممكناً في كل الأزمنة والعصور؟

إن أعداء الإسلام ينكرون عليه هذه الشروط، فمنهم من ينكر عليه توضيح أهدافه وتحديدها ومنهم من ينكر عليه قدرته على تحقيق السعادة لجميع الشعوب، بل هو يراه خاصاً بالعرب وحدهم أو متفقاً مع عقلية الشرقيين وحدهم، ومنهم من ينكر عليه مسايرته لتطور الحياة فيزعم له الجمود والعجز عن مسايرة ركب الحياة السائر بانتظام، المتطور دائماً من حسن إلى أحسن، ومن

إحاطة ضئيلة ببعض حقائق الحياة إلى محاولة الإحاطة بشؤون الحياة كلها. هكذا يزعم أعداء الإسلام على اختلاف بيئاتهم ومقاصدهم.

ولا يشك معي كل من درس الإسلام دراسة واعية عميقة شاملة في أن هذا الذي يزعمونه عن الإسلام لا يخلو من جهل به أو تعصب عليه. وكلا الخلقين يشين صاحبه لدى العقلاء ويحط من قيمته لدى العلماء، ولكن الجاهلين لا يبالون أن ينكشف جهلهم للعلماء، لأنهم ظنوا جهلهم علماً، ومن ارتضى جهله علماً فقد أعذر أهل العلم في كسفهم لجهله وتبيانهم لسفهه، والمتعصبون لا يبالون أيضاً أن ينكشف تعصبهم للمنصفين، لأن التعصب غشى على بصيرتهم وملأ قلوبهم حقداً وغيظاً، ومن عمي بصره عن رؤية الحق، وامتلأ قلبه بالحقد عليه والغيظ منه، فقد أعذر المنصفين في أن يبينوا أمره للناس كيلا يضل معه الغافلون، ويشقى به البسطاء والجاهلون.

إني هنا لا أتحدث إلى جاهل يدعي العلم ولا إلى متعصب غلبه الهوى، وإنما أريد أن أتحدث إلى شباب الإسلام وفتيانه إلى رجاله ونسائه إلى خاصته وعامته إبلاغاً لدعوة الله، وتحذيراً من مزالق الجهل، وتنبيهاً إلى ضغائن الصدور.

ولست أزعم أني أعلم ما لا يعلم العلماء، وأفهم ما لا يفهم الحكماء، وآتي بما لم يأت به الأوائل، فأنا أبرأ إلى الله من الغرور والادعاء والإعجاب بالآراء، وأسأله العصمة والسداد فيما أتحدث وأحاضر، وإني أقوم بواجبي في الكشف عن وجه الحق الذي غطته الأباطيل، إسهاماً مني بواجب الدعوة إلى الله عز وجل، وبيان الطريق الصحيح الذي ينبغي أن تسلكه أمتنا في نهضتنا الحاضرة استجابة لأمر الله عز وجل في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وأملاً في الدخول تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

إن أهداف الإسلام واضحة شاملة كفيلة بالسعادة لجميع شعوب الأرض إذا اتبعت هديه وفهمته على وجهه الصحيح، وطبقته بالطريقة التي كان يطبق بها رسول الله ﷺ ما أوصى الله إليه من هديه وإرشاده. ثم اتبع صحابته رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان نفس طريقته وأسلوبه فبلّغوا الإسلام للناس، وأبانوا مقاصده للجماهير، واجتهدوا في بيان أحكامه في شؤون الحياة ومشكلاتها فإذا بالإسلام ينتشر في أمد وجيز انتشاراً لا عهد لدين ولا فكرة بمثل انتشاره، ويكون له أعظم التأثير في رفع مستوى الإنسان أفراداً وجماهير إلى

مستوى لا عهد للبشرية به من قبل، ولا يحتاج الإسلام اليوم إلا إلى حسن عرضه على الناس عرضاً تقبله عقولهم وفطرهم، وإلى حسن تطبيقه في المجتمعات تطبيقاً يزيل ما تشكو منه ويحقق ما تصبو إليه.

١ ـ أن من أول ما حرص الإسلام على أفهامه للناس تنزيه مقام الألوهية من كل ما شابها من خرافات وأباطيل، فالله واحد أحد، فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وهو وحده خالق الكون ومسير شؤون الحياة، إليه وحده يجب أن يتجه عباده بالرجاء والدعاء والعبادة والخضوع، وهو وحده الذي يخشى عقابه ويرجى ثوابه، فلا ظالم إلا ويد الله فوق يده، ولا طاغية إلا وقوة الله فوق قوته، فعلى الناس أن يكونوا مع الله عبيداً ومع من سواه أحراراً كراماً شرفاء أعزاء إن خضعت جباههم له بالسجود ارتفعت نفوسهم لغيره بالإباء، وإن اتضعوا معه بالعبودية، فهم مع غيره أحرار يتصرفون تصرف الشرفاء الأعزاء يعطون بتعاون ويأخذون بكرامة، ويخضعون لنظام، وينقادون لحق.

٢ ـ ومما سعى إليه الإسلام تربية ضمير الإنسان تربية تجعله يتعاون مع أبناء مجتمعه على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان،وهو في تعاونه لا يخشى قانوناً قد يعاقبه وقد يفلت منه، ولا حكومة قد تعلم تفريطه وقد لا

يبلغها من أمره شيء، وإنما يخشى إلهاً بصيراً مطلعاً عالماً بالسرائر يقف بين يديه في المحكمة كل يوم خمس مرات يقدم له الخضوع لأوامره ونواهيه ويستعين به فيما يريد من خير ويدفع من شر، إنه يخشى إلهاً يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم إليه المرجع والحساب عند البعث والنشور فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما الله يريد ظلماً للعالمين.

٣ ـ ومما سعى إليه الإسلام بعد ذلك إقامة أسس المجتمع على الخير والحب والعدل والتعاون، فلا ظالم إلا ويد الدولة تضرب على يده، ولا مظلوم إلا وسلطان العدالة يرد إليه حقه، ولا غني يترفه الغنى حتى يحنو على كلبه وينفق عليه بينما يموت جاره جوعاً، ولا فقير يدفعه فقره إلى ارتكاب الجرائم والسرقات حتى يقض أمن المجتمع وسلامته بل له حق معلوم لا منة ولا تفضلًا في أموال أهل الغنى والثراء. فإن لم يجد من يؤدي إليه هذا الحق كان حقه في بيت المال يعطي له ما يعيش به كريماً ويموت كريماً. هذا هو المجتمع الذي يريده الإسلام يتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأبر البر إطاعة الله فيما أمر وألزم أو نهى وحذر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠].

٤ ـ ومما هدف إليه الإسلام أن تكون دولته خير

دولة تسوس الناس وتنشر الخير وتحارب الشر فقد قال تعالى مبيناً واجبات الدولة الإسلامية التي تنتصر على أعدائها الباغين عليها ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١] ـ وهذا يعني نشر السمو الروحي في العالم ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١] ـ وهذا يعني إقامة التكافل الاجتماعي في المجتمع ـ ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الحج: ٤١] ـ وهذا يعني تعاون المجتمع على كل ما فيه عمران وتقدم من علم وصناعة وتهذيب وإرشاد ـ ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ـ وهذا يعني تعاون المجتمع على محاربة الشر والأشرار الذين لا ينفذون شرائع الله ويعيثون في الأرض فساداً. هكذا تشرح الآية الكريمة بأوجز بيان مهمة الدولة الإسلامية: أن تنشر السمو الروحي بالطاعة والعبادة، وتحقق التكافل الاجتماعي باليسر والحب، وتعمر البلاد بمشروعات التقدم، وتصون البلاد من فتن الأشرار ودسائس المفسدين.

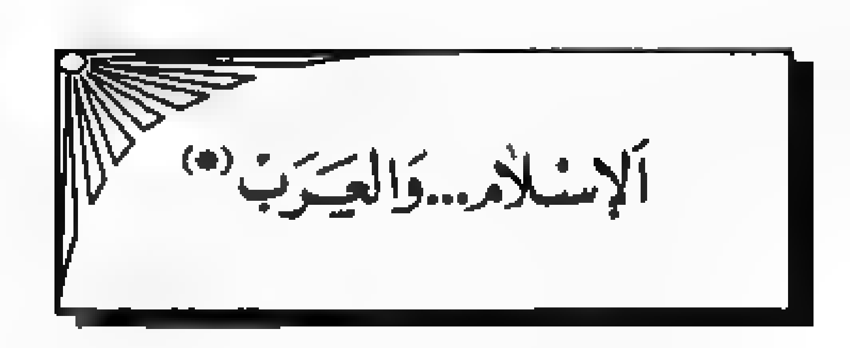
٥ ـ ومن أهداف الإسلام نشر السلام في العالم عن طريق أخوة الإسلام، فالمؤمنون أخوة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر يجتمعون على قلب واحد من مختلف بقاع الأرض، ويتحابون حباً يمحو فيما بينهم فوارق العروق والألوان والأجناس والثروات والكثرة والقلة، وأبرز ما يتجلى هذا الإخاء العظيم الأثر في نشر السلام

بين الأمم والشعوب. إنما هو في مؤتمر الحج العظيم.

هذه بعض أهداف الإسلام العظيم الخالد، وأنتم يا أبناء هذه البلاد المقدسة أعلم مني بما كان لهذه الأهداف من بالغ الأثر في تغيير مجرى التاريخ والحضارات، فمن بلادكم: من مكة أم القرى، من المدينة مثوى الرسول العظيم ﷺ ومقر الخلفاء الراشدين ومن شتى أنحاء هذه الجزيرة العربية انطلقت كتائب الخير والتعليم والإنقاذ لا مستعمرة ولا مستذلة ولا متجبرة، بل هادية مرشدة تحطم الأغلال عن عقول الشعوب وإراداتها وحرياتها وتذكرها بجلال الله الذي لا ينبغي أن يخضع أحد حق الخضوع إلا لجلاله وعظمته. من بلادكم يا أبناء هذه الديار المقدسة انطلق خالد وسعد وعمرو وأبو عبيدة والمثنى وإخوانهم من أبطال الحروب الإسلامية الخالدين يوجههم ويشرف عليهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من صحابة رسول الله فقهاء وعلماء وواعظين..

.. أفرأيتم يا شباب الإسلام كيف فعل الإسلام فعله العظيم المعجز الخالد أبد الدهر فأقام الحضارات وأنشأ الممالك، وشاد الجامعات، ونشر العلم، وبنى المصانع.. أترون هذا الإسلام العظيم الذي قام بأعظم المعجزات في تاريخ الحضارات يعجز اليوم عن أن يقوم بالعمل مرة أخرى؟ لا.. أبداً.

يا شباب. أبداً. يا رجال، أبداً يا آباء، أبداً. يا أمهات، أبداً.. يا مسؤولون، أبداً. يا أبناء الشعب لن يعجز الإسلام أبداً أن يجدد للإنسانية إنسانيتها مرة أخرى لو عقدتم العزم على ذلك، فهل نحن فاعلون وإنا لفاعلون إن شاء الله.



الإسلام... والعرب (*)

لعلكم تعلمون جميعاً ما كان عليه العرب في جاهليتهم قبل الإسلام من أوضاع اجتماعية متأخرة ومن عقائد وثنية أو ضالة. ومن قتال متصل بين القبائل بعضها مع بعض، وهذه الأمور الثلاثة وحدها شر ما تبتلى به أمة أو يتصف به مجتمع.

لقد جاء الإسلام وفي العرب وثنية شاملة لأكثر جماهيرهم، ومنهم من كان على النصرانية المحرفة ومنهم من كان على اليهودية المتعبة وهم قلة نادرة بجانب الكثرة المتكاثرة من عبدة الأوثان، فللعرب أوثانهم الكبرى التي تشترك في تعظيمها وإن كانت بعض قبائلها تزيد في تعظيمها على القبائل الأخرى، وأشهر هذه الآلهة الكاذبة هي مناة واللات والعزى.

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الثاني ـ ربيع الثاني ١٣٨٦ ـ تموز ١٩٦٦ ـ السنة السابعة.

وكان لكل بيت في العرب ـ كما يقول الكلبي في كتاب الأصنام ـ إله صغير في بيته كان عليه إذا خرج لسفر شوقاً إلى المعرفة بما أكثر من لفت أن يطوف به ويتعبد له، حتى إذا نزل منزلاً اختار أربعة أحجار من الأرض التي قرر الإناخة فيها فجعل من أجملها في رأيه إلهاً يعبده، وجعل الثلاثة الباقية أثافي لقدره فإذا ارتحل تركها ثم إذا نزل بأرض أخرى فعل كما فعل في المرة الأولى وهكذا حتى يعود إلى بيته، وكان في جوف الكعبة وحولها أصنام كثيرة أشهرها «هبل» وكانوا يقدمون لها القرابين، ويتوسلون إلى إرضائها أو استشارتها أو تحقيق ما يريدون منها من مطر أو رزق أو غير ذلك بكل وسائل العبادة والقربى، فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالإسلام كان الهدف الأول لرسالته القضاء على هذه الوثنية المخزية، فالآيات التي نزلت عليه في مكة قبل الهجرة كانت تدور كلها حول الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له والتنديد بالأوثان وعبادتها تنديداً حملهم على التعجب من دعوته للتوحد أحياناً، فإذا هم يقولون كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥] كما حملهم على الكيد له والضراوة في مقاومته ضراوة جعلتهم ينسون أواصر القربى بينهم وبينه، وينسون أي انحدار انحدروا إليه في عبادتهم للأوثان وعكوفهم عليها.

ولست أرى في تاريخ الفكر الإنساني وصمة عار أشد من قبول الوثنية ديانة والأوثان آلهة وهي صماء بكماء لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً. وعبادة الصنم المتخذة من حجارة ـ وهو الغالب في الأصنام ـ أقل ما يقال فيها إنها تربط العقل الوثني بالأرض وأحجارها وتحده من النظر في السماء وآفاقها، تحده من حرية تفكيره بل تغلها وتقيدها قيداً لا يرجى معه خير في تطور أو تقدم، ولكن عبادة الله خالق الأرض والسماوات ومبدع الأكوان على أجمل نظام يجعل عقل المؤمن متجهاً إلى السماء لا إلى الأرض، وإلى اللانهاية لا إلى المحدود، وإلى النظام والإبداع لا إلى الصدفة والفوضى ومحاولة التعرف إلى أسرار هذا الكون العظيم الذي لم يستطع العقل الإنساني حتى الآن برغم تقدمه العلمي الباهر أن يعرف له مبدءاً أو نهاية، فإذا العقل المؤمن الموحد منطلق مفكر عاكف على التعرف على أسرار ما يحيط به من كون عجيب وخلق بديع، ومن هنا انطلق العقل العربي في الإسلام وأصبح قادراً على أن يتساءل ويفكر ويربط الأسباب بالمسببات ويحاول أن يتعرف إلى أسرار الأرض والسماوات، وزاده الإسلام بعد تحطيم أغلال الوثنية عن عقله وقلبه نظره إلى مظاهر الطبيعة التي تحيط به ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]

بل لفت نظره إلى عجائب الخلق في جسمه الصغير. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤] فما نفض العربي عن جسمه بعد الإسلام ثوب الوثنية حتى غدا مولعاً بشتى صنوف المعرفة، حريصاً على تتبع آثار المفكرين من مختلف شعوب الأرض إلا ما يتصل بالفكر الوثني فلم يعد يستسيغه ولا يقبل إهانة الإقبال عليه أو الاهتمام به.

ولو أننا رجعنا إلى الحساب في هذا الانقلاب العجيب في الفكر العربي والخلق العربي لرأينا الأمر أعجب وأشد دهشة فلقد أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد البعثة ثلاثة عشر عاماً. ثم فتحها بعد الهجرة بثمان سنوات فحطم أصنامها كلها وأرسل إلى اللات والعزى ومناة وبقية الأصنام المتفرقة في شتى أنحاء الجزيرة من يحطمها من صحابته فلم يلقوا أي مقاومة في ذلك ولا عناء، ومعنى ذلك أن الوثنية في جزيرة العرب انتهت إلى الأبد بعد دعوة الإسلام إلى التوحيد بإحدى وعشرين سنة فحسب، فهل سمعتم بمثل هذا في تاريخ الإصلاح

مكة ١٣ سنة | الهجرة المدينة ٨ سنوات × ← تحطيم الأصنام ⇐ ٢١ سنة حدث خلالها تغيير جذري في العقيدة

الديني والاجتماعي في شرق الدنيا وغربها. والأعجب من ذلك أن الذين حطموا الأصنام العربية بأيديهم هم الذين كانوا قبل عشرين سنة فحسب يعبدونها ويصعرون لها وجوههم بالعبادة أو السجود.

لا أبناؤهم ولا أحفادهم ممن ولدوا في ظل الإسلام.

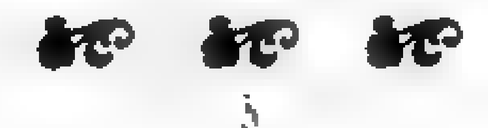
ولما قامت حروب الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ وتولي أبي بكر للخلافة مباشرة كان من عواملها ادعاء دجالين كذابين للنبوة كالأسود العنسي وسجاح ومسيلمة ولكن لم يكن في عواملها حنين العرب إلى الوثنية، فلم تقم في ناحية من نواحي الجزيرة التي اشتعلت بالفتنة يومئذ دعوة واحدة إلى العودة لعبادة الأصنام، ومعنى ذلك أن الإسلام استطاع خلال إحدى وعشرين سنة فحسب أن يغير دين أمة تغييراً تاماً، وأن يفتح قلوبها وعقولها لدعوته الجديدة إلى التوحيد ولو أن أضعاف هذا الجهد بذل لتغيير عادة بالية لا عقيدة ممكنة في أمة من الأمم لأخفقت إخفاقاً ذريعاً. وها نحن نرى اليوم حكومات الشرق الأوسط والأدنى تقوم بحملات واسعة تعتمد على العلم وعلى كل وسائل الدعاية لتغيير بعض الأوضاع الاجتماعية السيئة فيها فلا تصل إلى نتيجة تذكر، بل إن الأمم المتمدنة نفسها يصعب عليها ترك

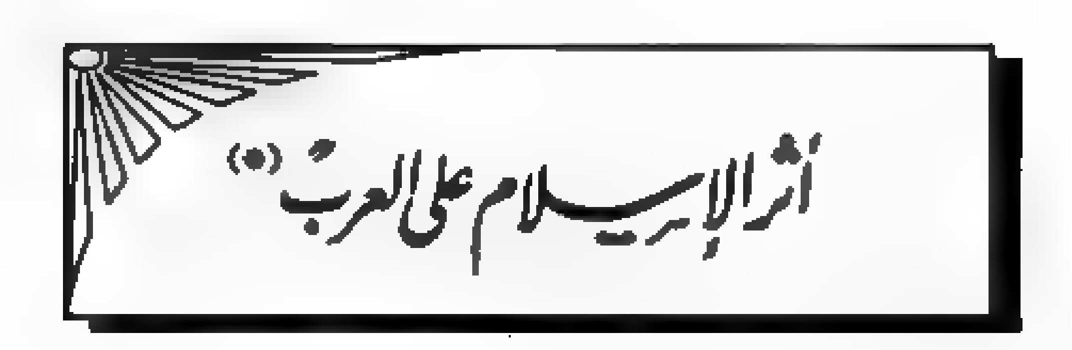
عاداتها برغم تأكيد العلم على ضررها كعادة التدخين مثلًا، فبالرغم من كل ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة تحت إشراف مؤسسات علمية، ووزارات حكومية كوزارات الصحة عن خطر التدخين، ووجود صلة وثيقة بينه وبين السرطان، بالرغم من كل هذا لم تثبت لنا الإحصاءات أن الناس هناك أقلعوا عن التدخين أو أقلوا منه.

ومما يذكر عن كاتب غربي قصصي كبير أنه قال يوماً: من الذي يزعم أن الإنسان لا يستطيع ترك التدخين لقد تركت التدخين في حياتي أكثر من ستين مرة! ومعنى ذلك أن هذا الكاتب المفكر كلما استجاب لنداء عقله يوماً بوجوب الإقلاع عن التدخين، سرعان ما تغلبت عليه عادته بعد أيام فإذا هو يهمل العقل ويخضع للعادة ويعود للتدخين. فإذا كان هذا فعل الأمم والشعوب في الشرق والغرب في التمسك بعاداتها، فكيف استطاع الإسلام القضاء على ديانة قديمة الوجود في جزيرة العرب بين العرب أنفسهم خلال عشرين سنة تقريباً حتى غدوا من ألد أعدائها والمبغضين لها وانساحوا بعد ذلك في أنحاء الأرض يدعون إلى تركها ويؤلبون الجماهير عليها؟ كيف استطاع الإسلام أن يفعل ذلك كله؟ إلا أن دين الله دين الفطرة والعقل والإصلاح الذي تتجاوب معه النفوس، إلا

أنه محمد رسول الله ﷺ نبي الهدى المؤيد بعون الله المرسل من الله رحمة للعالمين.

يا شباب الإسلام في كل مكان، ويا شباب الإسلام في الجزيرة العربية بوجه خاص، ويا شباب هذه الديار المباركة بوجه أخص اعرفوا فضل الإسلام عليكم في تحرير أمتكم وبلادكم من خزي الوثنية وخرافاتها وتأخرها قبل أربعة عشر قرناً، واعرفوا فضله في تحرير عقولكم بذلك وإطلاق فضائلكم الإنسانية الأصيلة التي طمستها الوثنية قروناً متعددة، فإذا أنتم بالإسلام قادة الدنيا وهداة الشعوب.





إنكم تعلمون ما كان عليه العرب في جاهليتهم من لهو وعبث وشرب للخمور وإتيان للفواحش وتفاخر بالأنساب والأموال. هذا عدا ما كانوا يتحلون به من أخلاق حميدة كالوفاء والحمية والشجاعة والكرم وإغاثة الملهوف وحماية المستجير وغير ذلك.

وأهم ما كان عليه العرب في جاهليتهم قبل الإسلام فقدانهم للمثل الأعلى الصالح الذي يوجه حياتهم توجيهاً كريماً، فهم حتى في فضائلهم التي عرفوا بها لم تكن فضائلهم اجتماعية تعني مثلاً علياً يسعون لتحقيقها، وإنما كان مثلهم الأعلى في فضائلهم حسن السمعة وانتشار الصيت بالكرم والنجدة فحسب دون أن يكون لذلك أثر اجتماعي عام.

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الثالث ـ السنة السابعة ـ جمادى الأولى ١٣٨٦هـ ـ ١٧ آب ١٩٦٦م.

ولعلنا إذا أردنا أن نستدل على المثل الأعلى للعربي قبل الإسلام لا نجد خيراً من أبيات طرفة بن العبد في معلقته المشهورة حيث يقول:

ولو ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة

كميت متى ما تعل بالماء تزبد

ويعني بذلك الخمرة.

وسبقي إذا نادى المضاف محنبا

كسيد الغضا نبهته المتورد

ويعني بذلك إغاثته للملهوف.

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الخباء المعمد

ويعني بذلك المرأة.

فهنا نجد الشاعر الجاهلي يرى ملذاته في الحياة وهي التي يعيش من أجلها ولولاها لما بالى حتى مات: هي ثلاثة الخمرة والمرأة وإغاثة الملهوف.

ولا شك في أن المطلبين الأولين من رذائل

الحياة وموبقاتها، أما إغاثة الملهوف فهو أمر حسن لولا أنه لا يريد بذلك إلا اشتهاره بالحمية والنجدة.
فلما جاء الإسلام وقضى على الوثنية وعبادتها وأطلق العقول والأفكار من أسارها كان طبيعياً أن ينشأ عن ذلك تبدل في المثل الأعلى للعربي المسلم الموحد، فإذا هو ينحصر في شيء واحد هو مصدر كل خير، ومبعث كل فضيلة. ولولاه لامتلأ المجتمع شروراً وفساداً، ذلك المثل الأعلى الذي أراده الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك حيث يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وليست العبادة المقصودة هنا مقصورة على الصلاة والصيام وغيرها مما حصر المسلمون الأواخر فيه معنى العبادة، بل عبادة الله المقصودة في هذه الآية هي إطاعة الله وتنفيذ شرائعه فيما أمر ونهى من كل ما فيه خير للفرد وللمجتمع والدولة، ولعل أوضح تفسير لذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأوضح من ذلك في تفسير العبادة المقصودة من الخلق في الآية السابقة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] ففي هذه الآيات التي وصف الله بها عباده أي من قام بحق العبودية التي خلق من أجلها ما يدل على أن آفاق العبادة في الإسلام تشمل كل خير نافع للإنسان في نفسه، وللمجتمع في شؤونه، مما كان من شؤون الدنيا والآخرة. بهذا نقل الإسلام العربي من جاهليته التي تضيع فيها حياته عبثاً لا خير فيها إلى حياة كلها خير، وإلى خير ليس يقصد منه إلا رضا الله عز وجل والخضوع له في أوامره ونواهيه، وبذلك تبدلت حياة العرب بعد الإسلام تبدلاً عجيباً حتى كأنهم خلقوا خلقاً آخر.

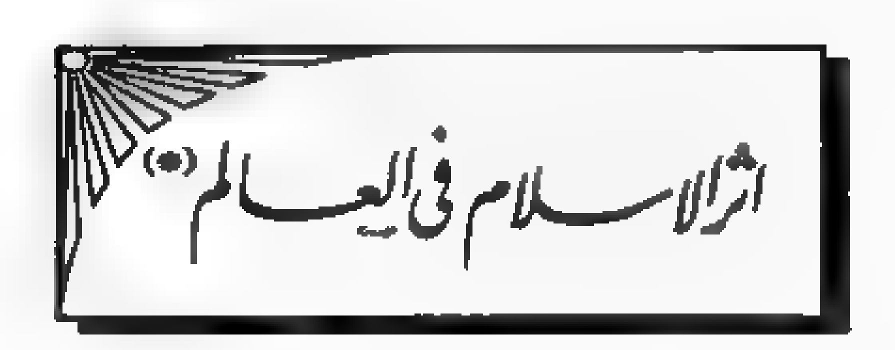
فالتسابق إلى فعل الخيرات وإخلاص النيات فيها لله لا لثناء الناس ومحمدتهم، وتفضيل السر فيها على العلانية اجتناباً للرياء الذي هو الشرك الأصغر، هذا هو ما أصبح العربي المسلم يسعى إليه، ويجاهد في سبيله ويعيش من أجله، ولا يشك أحد في أن اتخاذ المثل الأعلى للحياة على هذا النمط وفي هذا السبيل سمو بالإنسان إلى آفاق من الكمال والنبل والخير لا يتحلى بها إلا الملائكة، فالإسلام في تحديده المثل الأعلى للحياة

إنما جعل العربي المسلم يسير معه الخير أينما سار، وينتشر به الأمن والسلام أينما أقام، ويجعله إنساناً هزلت فيه حيوانيته بعد أن كان حيواناً ماتت فيه إنسانيته، فشتان ما بين هذا وذاك، وشتان ما بين آثار المثلين الجاهلي والإسلامي في الحياة، بل شتان ما بين أمة مثلها الأعلى لذة وشهوة وشهرة وبين أمة مثلها الأعلى عبادة وبر واستقامة، وإن ما نقرؤه من أعمال الصحابة الذين آمنوا بهذا المثل الأعلى الإسلامي بعد أن كانوا من قبل على المثل الأعلى الجاهلي مقيمين ليجعلنا نقف موقف الإكبار والإعجاب من سمو نفوسهم، ونبل أخلاقهم، وتماسك مجتمعهم، مما لا نجد له مثيلاً بين أمة أخرى من أمم الأرض في شرق الدنيا وغربها.

يا شباب الإسلام عامة، ويا شباب هذه الديار المباركة خاصة لا تضيعوا أيامكم عبثاً في مثل أعلى تتخذونه من غربي أو شرقي، فإن المثل الأعلى الذي لا مثيل له في الدنيا موجود عندكم، موجود في قرآنكم، موجود عند نبيكم مقروء في تاريخ أسلافكم. فارجعوا إليه واعملوا به تكونوا أسعد أمة على وجه الأرض.

يا شباب الإسلام هنا وفي كل مكان: هذا هو المثل الأعلى الذي تكونون به رجالًا، تكونون به أبطالًا، تكونون به ملائكة تمشون على الأرض، تكونون به

خالدين أبد الدهر، فلا تضلوا والله يدعوكم إلى الحق وإلى صراط مستقيم.



بعد أن حرر الإسلام عقلية العربي من الوثنية وخرافاتها، وعين له مثله الأعلى الذي يسعى له طيلة حياته. انساح هؤلاء العرب المسلمون في أنحاء الدنيا ليبلغوا رسالة الإسلام المحررة إلى شعوب الأرض فاشتبكوا في حروب دامية مع الفرس والرومان - ولن أتعرض الآن لطبيعة هذه الحروب أهي دفاعية أم هجومية - ولكني أتعرض لأهداف هذه الحروب وتغيير ما يدعيه المبشرون وكثير من المستشرقين المتعصبين عن أهدافها.

فقد زعموا أن الذي حمل العرب المسلمين على غزو فارس والروم هو جوعهم وجدب بلادهم والشره إلى خيرات جيرانهم من الفرس والروم، وهذه فرية لا يصعب على المنصف المتبع لأحداث التاريخ الإسلامي

(*) مجلة حضارة الإسلام - العدد الرابع - السنة السابعة - جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ - أيلول ١٩٦٦.

ومبادىء شريعته وتعاليم رسوله أن يكشفها ويبين ما فيها من تحامل وافتراء، وسنبين ذلك فيما حدث بين الوفد الإسلامي وبين رستم قبل معركة القادسية مباشرة، وليست بين يدي الآن كتب التاريخ لأنقل نص هذا الحديث بالحرف الواحد، ولكني سأذكر لكم ما علق بذاكرتي منه، ومن أراد منكم الرجوع إلى كتب التاريخ فلن يجده يختلف عما ذكرته إلا في الكلمات لا في المعاني والأهداف.

فقد أرسل رستم إلى المسلمين يطلب إرسال وفد لمفاوضتهم قبل البدء بالمعركة الفاصلة، فاختارت قيادة الجيش الإسلامي يومئذ وفداً للمفاوضة بعد أن تم تحديد زمان اللقاء ومكانه، وكان رستم قد نصب لذلك إيواناً كبيراً جداً فرشه بالحرير والديباج وأحاط نفسه بهالة من العظمة والكبرياء ولبس التاج المرصع بالأحجار الكريمة التي تبهر أبصار قومه من عبّاد المادة وأحاط به قواده وسيوفهم من ذهب وتيجانهم من الزمرد والياقوت ومن ورائهم عبيدهم ومن حولهم أعيان مملكة كسرى وسراته، وظن أنه بذلك يطلع العرب على شيء من عظمة الدولة الكسروية يومئذ ما يبهر أبصارهم ويجعلهم يستسلمون ويرجعون إلى بلادهم، فلما وصل الوفد الإسلامي ورأى قائده ما رأى أدرك بفراسة مقصد رستم من هذه الأبهة

المصطنعة والعظمة المادية الفارغة، فقال رئيس الوفد لمن معه وقد كانوا على خيول مجردة من كل زينة أو بهرجة: افعلوا مثل ما أفعل، ثم انطلق قائد الوفد ومعه رفاقه يطؤون بسط الديباج والحرير بخيولهم كما يطؤون رمال الصحراء، فدهش الحاضرون من الفرس، وقال السذج منهم حقاً أن هؤلاء قوم وحوش لا يعرفون الدنيا وزينتها، فلما وصل الوفد وهم على خيولهم إلى صدر الإيوان عند رستم وقواده وأعوانه ترجل رئيس الوفد الإسلامي ومن معه ثم نظر رئيس الوفد فرأى رستم متكئاً على وسائد من الحرير والديباج فانتزع رئيس الوفد الإسلامي واحدة منها وشقها ثم ربط بها فرسه في أحد أعمدة الإيوان، ففعل جماعته مثل ما فعل إذ انتزعوا من وسائد قواد رستم وأعوانه وربطوا خيولهم في أعمدة الإيوان، وذهل الحاضرون من صنيع هؤلاء العرب المسلمين وهمجيتهم بحسب آرائهم، وهمّ عبيد رستم أن يمنعوهم من ذلك لولا أن رستم نهاهم وأراد أن يعرف ماذا هم فاعلون، ثم نظر رئيس الوفد الإسلامي إلى كرسي رستم فرآه عريضاً واسعاً يتسع لأكثر من اثنين فأخذ مكانه بجانب رستم على كرسيه كأنه يفعل أمراً عادياً فهب عبيد رستم وانتزعوا رئيس الوفد الإسلامي من مكانه، فسألهم لم فعلتم ذلك؟ قالوا: هذا كرسي لا يجلس عليه إلا الأمير أو القائد وحده فتبسم رئيس الوفد

الإسلامي وقال بأعلى صوته: الآن علمت أن ملككم زائل، إنكم معاشر الفرس يستعبد بعضكم بعضاً، أما نحن العرب المسلمين فكلنا عبيد الله وحده لا شريك له: أن مُلكاً يقوم على الاستعباد والاستبداد لا يدوم أبداً.

وكانت هذه الكلمة هي القنبلة التي زعزعت عرش الفرس وزلزلت أركانه إذ قال العبيد بعضهم لبعض فيما بينهم: صدق والله العربي. ثم أمر رستم بكراسي لرئيس الوفد وأعضائه وبدأ كلامه بالتساؤل عن السبب الذي جرأهم على غزو فارس وقد كان المناذرة العرب من قبل عمالاً لهم. وكانت العرب بأجمعها تهاب فارس وتخشى بأسها، ذكرهم رستم بفقرهم وجدب بلادهم ولعل ذلك هو الذي أخرجهم منها ووجههم إلى قتال فارس وإذا كان ذلك فهو يأمر لكل جندي منهم بعشرة دراهم ويكسوهم ويطعمهم فيرحلون إلى بلادهم فأجاب رئيس الوفد الإسلامي بأن ما ذكره عن فقرهم وتفرقهم وهيبتهم لفارس قبل ذلك صحيح ولكن الله أنقذهم فبعث فيهم رسولاً من أزكاهم نسباً وأشرفهم بيتاً وأحسنهم خلقاً، فدعاهم إلى ترك ما كانوا عليه من الوثنية والفرقة والأخلاق الذميمة ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى مكارم الأخلاق ومحاسنها وجاءهم بدين يحسن الحسن ويأمر به. ويقبح القبيح وينهى عنه، ثم قال إن

رسول الله أمرنا أن نبلغ الناس رسالة الله لنخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا جئنا إليكم لا طمعاً في أموالكم ولا في ذهبكم وحريركم فقد رأيتم كيف احتقرنا ذلك كله ووطئناه بخيولنا وإنما جئنا لننقذكم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، فإن أنتم دخلتم في ديننا رجعنا عنكم لا نرزؤكم في أموالكم ولا ثرواتكم شيئاً، ويكون ملككم لكم وأرضكم لكم وتصبحون أخوة لنا في الإسلام نتعاون معكم تعاون الأخ مع أخيه على ما فيه خيره وصلاحه، فإن أبيتم ذلك فالجزية عن يد وإلا فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

أترون في هذا أثراً لطمع في مال أو دنيا ابتغاها المسلمون الأولون في فتوحاتهم وحروبهم؟ أترون في هذا الكلام شرهاً وتطلعاً إلى امتلاك أرض فارس وخيراتها وثرواتها؟ أم ترون فيه حرص الذي أنقذه الله من الغرق على أن ينقذ من ظلوا غرقى في الكفر والعبودية والوثنية والضلالة؟ وحرص الذين حررتهم ديانة الله من كل عبودية لغيره على أن يحرروا غيرهم من كل مظاهر العبودية وآثارها؟ أترون في كلام هؤلاء المسلمين المحاربين كلام غزاة مستعمرين شرهين على أموال الناس وثرواتهم؟ أم كلام هداة مرشدين حريصين على إنقاذ

الناس في عقولهم وأرواحهم وأخلاقهم من كل ما يؤدي إلى بؤسهم وشقائهم؟ بلى!

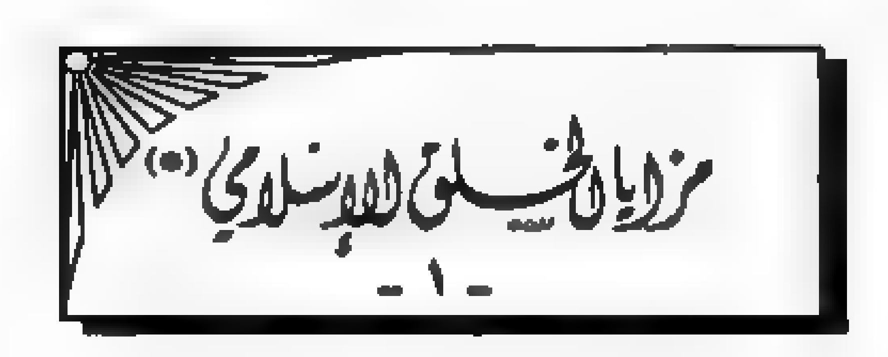
إنه الإسلام العظيم الذي اتجه إلى تحرير شعوب الأرض بعد أن حرر بلاد العرب، والذي أخذ على عاتقه إنقاذ الناس من عقائدهم الضالة وأوضاعهم الفاسدة، وأخلاقهم المنحلة، وشرورهم الطاغية بعد أن أنقذ العرب من ذلك كله ثم هيأهم لحمل رسالة الإنقاذ إلى شعوب الأرض قاطبة؟ إن التاريخ ليثبت أن معركة القادسية نقلت شعب فارس من عبادة النار إلى عبادة الواحد القهار، وأنقذتهم من نكاح الأمهات والأخوات إلى تكريمهن واحترامهن والقيام بواجبهن، وحررت شعب فارس من حكم الطغاة وخرافة الوثنية وفلسفة الماركسية، فأسهموا بعد ذلك في الحضارة الإسلامية إسهاماً ما كان يتم لهم شرفه لولا هذا الإسلام العظيم، ونبت منهم في ظل الإسلام خلال عشرات من السنين أئمة وعباقرة وساسة وأدباء، كأبي حنيفة والرازي والبخاري والشيرازي وأضرابهم مما لم تستطع عبادة النار أن تنبت لهم من بخارى غبار أقدامهم في ميادين العلم والدين والفلسفة والأدب خلال آلاف من السنين، إنهم منذ دخلوا في الإسلام، دخلوا في التاريخ كواكب تضيء الدنيا وتبدد ظلماتها، ولكنهم يوم كانوا يعبدون النار دخل منهم في

التاريخ رجال لم يهدوا ركباً، ولم ينقذوا غرقى، بل كان أكثر من دخل منهم في التاريخ يوم كانوا يعبدون ضلالّاً مضلين، أضلوا الناس عن طريق الله المستقيم، وأدخلوهم في سواء الجحيم.

وكما فعل الإسلام بالفرس فعل بغيرهم من الشعوب. فهداهم إلى الطريقة المثلى وسما بأخلاقهم إلى المستوى الأعلى ونشر العلم فيما بينهم، ولست أريد أن أتحدث عن حضارة الإسلام في بغداد وقرطبة ودمشق وغيرها كأثر من آثار الإسلام كانت في القرون الوسطى نوراً يبدد ظلماتها ويضيء آفاق حياتها. لن أتحدث عن ذلك فهو أمر يطول ومجاله كتاب أو كتب لا خطاب أو خطب.

يا شباب العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، يا شباب العرب في كل ديار العرب، يا شباب هذه الديار المباركة ويا فتياتها، يا رجالها ويا نساءها، يا أيها المؤمنون من كل جنس ولون: إن العظائم كفؤها العظماء، ولا تنشأ العظمة إلا في جو يربى على العظمة ويخلق العظماء، وليس كالإسلام دين يخلق العظماء وينشىء الأبطال، ويؤسس الأمجاد.. فيا شباب يا فتيات، يا رجال: لا يخدعنكم عن الإسلام مخادع ولا يصرفنكم عنه ضال مبغض بل استمسكوا بعروته،

واستضيئوا بهديه تكونوا خير أمة أخرجت للناس، وخير أمة تنقذ الناس اليوم من ضلالاتهم وأوهامهم يا شباب الإسلام لا تضلوا فهذا هو الطريق، لا تتحيروا فهذا هو القائد لا تتعثروا فهذا هو النور. ںٓ^



مزايا الخلق الإسلامي(*)

- ١ -

رأينا فيما سبق أثر الإسلام على العرب خاصة وعلى العالم عامة، ورأينا كيف صنع الإسلام المعجزات في تحويل العرب من دياناتهم الوثنية التي أقاموا عليها مئات السنين إلى ديانة التوحيد، وكيف حملوا بعد الإسلام لواء الهداية للشعوب وإنقاذها مما تتخبط فيه من شرك وفساد وضلال. ورأينا كيف كان هدف الحروب الإسلامية هدفاً إنسانياً تهذيبياً خالصاً لا يشوبه طمع في مال ولا حرص على دنيا.

وفي الحق أن أمر الفتوحات الإسلامية عجيب من العجب: ذلك أن العرب بعد الإسلام واجهوا دولتين من أعظم دول الأرض يومئذ ودخلوا معهما في حروب

(*) مجلة حضارة الإسلام - العدد الخامس - السنة السابعة - رجب ١٣٨٦هـ - تشرين الأول ١٩٦٦.

انتهت بزوال أقوى الدولتين من الوجود بسرعة لا يعرف التاريخ لها مثيلًا، وخسران الدولة الثانية وهي الروم أجمل ولاياتها وأكثرها خيراً وبركة، ويحار المؤرخون الغربيون في تفسير هذه الظاهرة الفريدة في التاريخ، ولما كان هؤلاء المؤرخون أو الباحثون الغربيون ماديين في تفكيرهم وفلسفتهم في الحياة فقد عجزوا عن حل هذا اللغز المحير في زعمهم، وهو انتصار الإسلام بأسلحتهم البسيطة وأعدادهم القليلة على دولتي فارس والروم مع ما تملكان من أسلحة فتاكة وأعداد من الجيوش ضخمة ولكننا نحن الذين نؤمن بالله وقدرته، ونثق بنصرة المؤمنين العاملين على الكافرين الضالين، ونعرف ما للأخلاق القوية المستقيمة من أثر في انتصار الأمم وغلبتها، لا نجد في نتائج الحروب الإسلامية أمراً غريباً أو لغزاً غير مفهوم.

فالعرب بعد الإسلام قد ولدوا ولادة جديدة في كل شيء، في عقائدهم، وفي أهدافهم، وفي أخلاقهم، والعقيدة التي دانوا بها بعد بعثة محمد ﷺ هي من القوة بحيث تنهد أمامها الجبال الراسيات، والهدف الذي جعلوه نصب أعينهم هو من السمو بحيث تسهل معه كل التضحيات، والخلق الذي تخلقوا به هو من الجمال والكمال والخير والنبل بحيث تتفتح له صدور أشد الأعداء خصومة وأبلغهم ضراوة. تلك هي العوامل الثلاثة

الرئيسية التي أدت في الحقيقة إلى اتساع رقعة الإسلام مدى قرن واحد، أكثر مما وصلت إليه دولة الروم مدى ثمانية قرون أو تزيد.

وقد ذكرت فيما مضى عن العقيدة الإسلامية وجلالها وقدسيتها، كما حدثتكم عن المثل الأعلى الإسلامي ونبله وسموه وكماله، وسأحدثكم اليوم عن الخلق الإسلامي وإنسانيته وجماله بما نعلم منه سراً عظيماً من أسرار انتصار أمتنا في وثبتها المؤمنة بعد أن دانت بالإسلام وأخلصت قلوبها ومشاعرها ووجداناتها لتعاليمه وأحكامه.

أستطيع أن ألخص القول عن الخلق الإسلامي بأنه يتميز بأربعة ظواهر، فالخلق الإسلامي إنساني واسع الأفق في إنسانيته حتى يشمل كل مخلوق، وهو قوي مع إنسانيته، بحيث ينأى بصاحبه عن الذلة والمهانة، وهو مع إنسانيته وقوته جماعي لا فردي بحيث يخلق في صاحبه الشعور دائماً وأبداً بأنه فرد من أمة وعضو في جماعة ليس منفرداً عنها لا يعنيه خيرها أو شرها. وهو مع إنسانيته وقوته وجماعيته واقعي لا مثالي خيالي فيمكن أن يتخلق به كل إنسان في كل زمن وفي كل بلد وفي كل بيئة. تلك هي الظواهر الأربعة للخلق الإسلامي وسأحاول بقدر ما يتسع لي الوقت أن أشرح ما أجملت

ليتأكد في الأذهان وليسارع كل مسلم إلى التخلق بخلق دينه لعل عصور الانحطاط التي عشناها، ولعل أوزار التخلف التي تحملناها تنتهي فنعود كما أراد الله خير أمة أخرجت للناس.

أما أن الخلق الإسلامي إنساني، فذلك واضح في اعتباره الإنسان أحد مخلوقات الله الكثيرة في هذا الكون وهو يشترك معها جميعها في أن الله ربها وخالقها، ومعنى ذلك أن للإنسان أخوة مع كل مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد، انظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] أي عوالم مثلكم إن تميزتم عنها بالعقل والمعرفة فأنتم تشتركون معها فيما عدا ذلك من الخصائص والطباع، وهذا المعنى الإنساني الذي أشارت إليه الآية معجزة من معجزات القرآن، وهو منبث في جميع نصوص الشارع كتاباً أو سنة:

وليس أدل على ذلك من أن يأمر الله المسلم بأن يتذكر هذا المعنى كل يوم ثلاثين مرة حين يقرأ في كل ركعة من ركعات صلاته ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] ومن هنا جاء الحث على الرفق بالحيوان بما يقف المنصف أمامه حائراً من عظمة هذا الخلق الإنساني العظيم، فلا يجوز إيذاء الحيوان غير المؤذي ولا منع

الشراب والطعام عنه حتى يموت جوعاً وكلنا يعلم الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها**».

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن رجلًا رأى كلباً يلهث فيأكل الثرى «أي التراب» من شدة العطش، فجعل يغرف له بخفه من بئر قريب منه حتى روي ثم قال رسول الله ﷺ: «**فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة**» فعجب بعض الصحابة من ذلك فقالوا يا رسول الله: أو أن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**في كل كبد رطبة أجر**» وفي رواية أخرى: «**أي في الإحسان إلى كل ذي روح أجر**». أما الحيوانات المؤذية فتقتل دفعاً لضررها، ولكن قال الفقهاء: يجب أن تقتل قتلًا لأنه أقل لها عذاباً ولا يجوز أن تحبس فيمنع عنها الطعام والشراب حتى تموت جوعاً وعطشاً، لأن في ذلك تعذيباً لها يتنافى مع خلق الإسلام في الرحمة وتحريم التعذيب لكل ذي روح، وقد استلهم فقهاء الإسلام هذه الروح والمبادىء فجاءت في كتب الفقه أحكام يذهل لها الإنسان حين يقرؤها.

فقد قال الفقهاء: لا يجوز لمن عنده بقرة أو شاة ولها ولد في طور الرضاعة، أن يبيع حليبها حتى يشبع ولدها منه، وإذا لم يكف حليبها لإشباعه كان على المالك أن

يشتري له حليباً يكفي حاجته من الغذاء، ومما قالوا: من كانت له خلية نحل، فعليه أن يضع عند الخلية دجاجة مشوية تأكل منها النحل في فصل الشتاء إذ تنعدم الزهور، ومن كان يربي دود حرير القز، وهو الذي يقتات من ورق شجر التوت، عليه إذا يبست الشجرة أو تساقط ورقها أن يشتري لها ورقاً تقتات منه. هذه بعض الأمثلة عن إنسانية الخلق الإسلامي مع الحيوان. ولقد كان بعض الشيوخ إذا مر في الطريق وخلفه تلامذته ورأى كلباً قادماً أمرهم أن يوسعوا له حتى يمر لأنه يشترك معهم في حق المرور.

فهل سمعتهم يا شباب الإسلام بمثل هذا الخلق الإنساني في دين أو أمة أو تاريخ؟ وألا ترون أن حقوق الحيوان في الإسلام أوسع وأسمى من حقوق الإنسان في هذه الحضارة؟ إني لأرجو من الله أن يوفقني لإخراج كتاب بعنوان حقوق الحيوان في الإسلام ليعلم أي خلق جاء به هذا الإسلام العظيم.

ومثال آخر على إنسانية الخلق الإسلامي مبادؤه في حروبه ومعاركه فقد حرم قتل كل من لم يحارب من الأعداء كالشيوخ والنساء والأطفال والرهبان، وأمثالهم ممن لم يسهموا في حربهم للإسلام بسيف أو رأي أو معونة، ولما انتهت معركة حنين بعد فتح مكة، رأى رسول الله ﷺ في إحدى الطرقات امرأة مقتولة فغضب

وقال من قتلها؟ فقالوا: خالد بن الوليد، فأرسل إليه من يبلغه نهي رسول الله ﷺ عن قتل النساء. ولقد كانت أخلاق المحاربين المسلمين في الفتوحات الإسلامية الأولى مذهلة للأمم التي حاربوها، مما حمل كثيراً من أبنائها على الرغبة في الصلح دون المحاربة وعلى الدخول في الإسلام ومما جعل الجيوش الإسلامية لا تلقى كبير عناء في المقاومة.

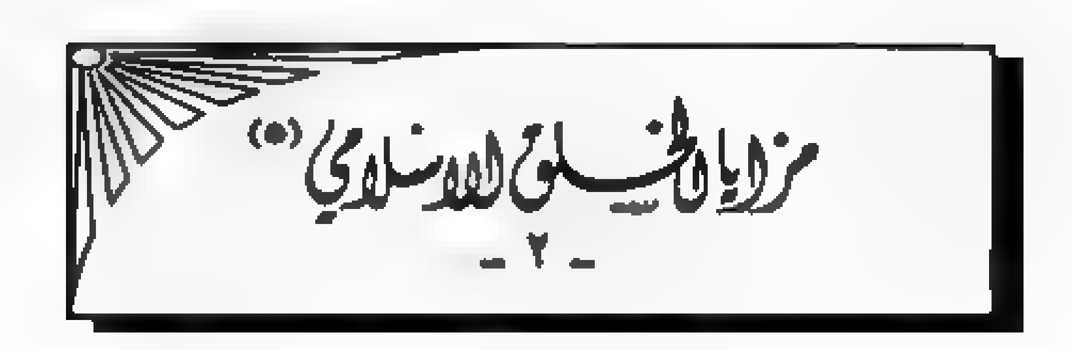
فقد كان خالد في حروب العراق لا يقتل الفلاحين في قراهم، ولا يتعرض لهم بأذى، لأن أمر الله صريح في أن لا نقاتل إلا من قاتلنا، وفي حروب العراق بعد أن استسلمت إحدى المدن، وتم الاتفاق على الصلح جاء المستسلمون للقائد الإسلامي أبي عبيد مسعود الثقفي بمائدة عامرة بأطايب الطعام فسألهم: أكل الجند يأكلون من مثل هذا قالوا: لا وإنما هو طعام صنعناه للأمير خاصة، فقال لهم ردوه، لا والله لا آكل إلا مما يأكل منه الجند، بئس المرء أبو عبيد أن صحب قوماً أراقوا في سبيل الله دماءهم ثم يميز عليهم بغرض من الدنيا.

ولما فتح المسلمون دمشق وحمص وغيرها وأخذوا من أهلها أموالاً حسب اتفاقية الصلح، ثم اضطروا إلى التراجع حين علموا بتجمع الجيش الروماني في أعداد كبيرة، وعزموا على استرداد البلاد ورأى القادة المسلمون

أن يتجمعوا جميعاً في مكان واحد، فجمع كل قائد أهل البلد التي تم الصلح معها وقال لهم: لقد كنا أخذنا أموالًا لحمايتكم والدفاع عنكم وقضاء مصالحكم، أما وقد اضطررنا إلى الانسحاب من بلدكم، فها هي أموالكم إليكم لعجزنا عن تحقيق ما أخذنا من أجله أموالكم. فقال أهل كل بلد: ردكم الله إلينا سالمين والله لو كان الروم مكانكم لما ردوا إلينا شيئاً أخذوه، بل لأخذوا معهم من أموالنا كل شيء يستطيعون أخذه. والله لعدلكم وحكمكم أحب إلينا من حكم الروم وعسفهم، وتجمع المسلمون جميعاً واشتبكوا مع الروم في اليرموك المعركة الفاصلة هذا هو الخلق الإسلامي.

إن إنسانية الإسلام في الحرب تفوق إنسانية هؤلاء المتحضرين في أيام السلم، وكلكم تعلمون من أنباء وحشيتهم في معاملتهم للأمم التي كانت خاضعة لحكمهم ما تعلمون، فهل تعجبون بعد ذلك إذا انتصرت جيوش الإسلام بهذه السرعة العجيبة، وقد رأت الشعوب من أخلاقها ما لم تجده في دين ولم تقرأه في تاريخ، ولم تسمعه عن أمة؟

إن صفحات آبائكم في حروبهم كافية وحدها لأن تملأ نفوسكم اعتزازاً بتراثهم، وافتخاراً بفتوحاتهم فكيف إذا أضيف إلى صفحات حروبهم صفحات وصفحات؟!



قد يظن بعض الناس أن اتصاف الخلق الإسلامي بالإنسانية يتنافى مع اتصافه بالقوة، ذلك لأنهم قد يفهمون الإنسانية رحمة تصد عن معاقبة المعتدين، ورأفة تحول دون الاستعداد لعدوان الظالمين. وهذا فهم خاطىء لا يعرفه الإسلام، فالرحمة مع المعتدين تشجيع على العدوان، والرأفة مع الأعداء لا يلجأ إليه إلا من هان عليه الهوان. إن الإسلام دين الله الحكيم العليم الذي يعلم ما فطرت عليه طبائع البشر، وما يحتاجون إليه لصلاح أمورهم، فهو يضع الأشياء في مواضعها: فالرحمة للضعيف، والرأفة للمحتاج والمودة للصديق.

والسلم لمن أراد السلم، والحرب لمن أراد

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السادس ـ السنة السابعة ـ شعبان ١٣٨٦هـ ـ تشرين الثاني ١٩٦٦م.

الحرب[1]، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢]هذه هي شريعة العدالة، وتلك هي عدالة الحياة، ومن أجل ذلك ربى الإسلام المسلم على أن يكون مع إنسانيته قوياً في نفسه وخلقه، لا يقبل المهانة، وقد سلك الإسلام مسالك شتى لتربية هذا الخلق القوي في نفس المسلم تربية مجدية، ومن أدل ذلك إشعاره بقوة الله وقدرته، ووجوب اتصال قلبه دائماً بالله القوي القهار، وعبوديته له وانتسابه إليه، فعبدالقوي لا يكون ضعيفاً، وعبدالعزيز لا يكون مهيناً، كما أن عبدالكريم لا يكون بخيلاً، وعبدالحكيم لا يكون جهولاً، فانتسابك إلى الله يحتم أن تتخلق بأخلاقه إلا ما تفرد به سبحانه من صفات الجبروت والكبرياء وما شابههما.

ومن ذلك فرض العبادات في الإسلام، فالصلاة والصيام والحج قوة للجسم والروح معاً. وهي في الوقت ذاته تنمية لعواطف الخير والحب والرحمة في جو إنساني

---

(١) انظر كتاب «نظام السلم والحرب في الإسلام» للمؤلف من منشورات دار الورّاق - بيروت.

كريم لا ذلة فيه ولا مهانة، تعالوا نتحدث عن الصلاة التي هي ثاني أركان الإسلام لنرى أثرها في تربية الخلق الإسلامي القوي في نفس من يؤديها. ولنتخط الحديث عن الأذان وشرائط الصلاة ولندخل في الصلاة ذاتها نجدها تبدأ بهذا الشعار الإسلامي الفريد، ماذا يعني هذا؟ إن في الصلاة خضوعاً وإطاعة، إن فيها ركوعاً وسجوداً، وكل ذلك في ظاهره قد يعني الضعف والهوان في غير الصلاة.

ولكن المسلم حين يقف مكتوف اليدين إنما يقف بين يدي الله الذي هو خالق الأرض والسماء وملك الملوك وإله الكائنات، فليتذكر المسلم هذا قبل أن يقف مكتوف اليدين وليشعر نفسه بالقوة وهو في مظهر الخضوع، ليتذكر أنه إنما يفعل ذلك بين يدي الله الذي هو أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، ليقل بلا موارية ولا خفاء: الله أكبر فإذا قرأ الفاتحة تذكر ما يزيده قوة على قوة، وما يزيده صلابة في الحق واستمساكاً به وذلك حين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، إنه في هذه الجملة لا يخضع خضوع العبادة ولا يستعين استعانة الحاجة إلا لله وحده لا شريك له. فأي أثر أعظم من هذا الأثر ينشئه غير هذا الكلام ثم إذا أراد أن يركع والركوع خضوع ذكر أنه إنما يركع لله الذي

هو أكبر من كل شيء فيقول قبل ركوعه مرة أخرى: الله أكبر، ثم يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وذلك يعني أنه لم يركع إلا لربه العظيم الذي لا تداني عظمته عظمة، ولا سلطانه سلطان، وعبدالعظيم لا يكون إلا عظيماً دائماً، فإذا انتصب بعد ليحمد الله، تذكر أخرى أنه سيخضع غاية الخضوع للإله الأكبر فيقول قبل أن يضع وجهه على الأرض وهو أشرف أعضاء جسمه: الله أكبر، فإذا سجد تذكر مرة أخرى أنه لم يصفر وجهه بالخضوع والعبادة إلا للعلي الأعلى فيقول: سبحان ربي الأعلى وعبد الأعلى لا يكون في الحياة إلا علياً متسامياً دائماً وهذا سر التغاير بين تسبيح الركوع وتسبيح السجود، وهكذا يفعل المسلم في كل ركعة من ركعات صلاته يتذكر كبرياء الله قبل خضوعه ليشعر نفسه أنه لا يخضع خضوع المهيبين، ولا يركع ركوع الأذلاء، وإنما يخضع خضوع القوي لمن ليس فوقه أقوى منه، ويركع ركوع الكريم لمن ليس في الكون أكبر منه ولا أعز ولا أعظم.

وإنه لنهاية الشرف لمن يدرك عظمة الله وكبرياءه وقدرته وعظيم سلطانه، فإذا أراد أن يخرج من صلاته بعد أن تزود فيها ما يزيده قوة في الحق أعلن شعار السلام الخالد، فيقول لمن حوله من المؤمنين ومن معه

من الملائكة المقربين السلام عليكم ورحمة الله إشعاراً من الله للمسلم أن قوته لا ينبغي أن تسلط على إخوانه في الله وعلى أهل الخير أينما كانوا بل على المعتدين والظالمين وليس منهم واحد ممن يصلي ويركع ويسجد معه إنما هم أعداء الله ممن يريدون بدينه وبلاده وأمته سوءاً وشراً، وفي ابتداء الصلاة بالتكبير واختتامها بالسلام سر آخر وهو أن قوة الإسلام لا تنتهي إلا إلى خير وسلام: قوة الإسلام إذا هيئت لا تتعمد للشر ولا للعدوان ولكن تستعمل لرد الشر ونشر السلام، وما أحلى هذه القوة وما أجمل نتائجها وما أحوج البشرية إليها، ولو أنها كانت شعار من يملكون القوة اليوم لساد السلام في الأرض ولعم أهلها الرخاء والهناء.

أيها الأخ الكريم: هل صليت يوماً بهذا الشعور مراعياً هذه الأسرار في تكبير الصلاة وتسبيحها وسلامها فشعرت كيف تنتهي بك إلى قوة تتمنى أن تستعملها لخير البشرية ولسعادة الناس جميعاً؟ وهل شعرت بذلك وأنت تصلي في الجماعة لتشعر بواجبك نحوها في استعمال قوتك لخيرها وإسعادها؟

هذه بعض المعاني التي نجدها في الصلاة مما يطبع الخلق الإسلامي بالقوة العاملة لخير الإنسانية والسلام فإذا انتقلنا من ذلك إلى ما رغب فيه الإسلام من السباحة

والرماية وركوب الخيل، وإلى وجوب الاستعداد لرد غدر الأعداء في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] أيقنا أن المسلم يجب أن يكون قوياً وأن قوته ليست للعدوان بل لرد العدوان. وعلمنا بعد ذلك أن الجهاد في سبيل الله مظهر من مظاهر القوة في الحق والتضحية في سبيل الخير لا كما يزعم أعداء الإسلام من أنه سبيل لإكراه الناس على الدخول في الإسلام.

إن الله شرع الجهاد بعد أن أوذي المسلمون في دينهم وأموالهم وكراماتهم ثم لم يسمح لهم حين النصر بالانتقام والتدمير والتخريب كما هو شأن الحروب عند الأمم الأخرى، بل قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] وهذا خير وسلام وتعاون على البر والتقوى ومحاربة للشر والعدوان. كذلك هو الجهاد في الإسلام وكذلك كانت نتائجه، فلم نستبح أموال أمة بعد انتهاء الحرب بيننا وبينها كما يفعل الناس اليوم، ولم نكرهها على الدخول في ديننا كما فعلت بعض الديانات الأخرى، وإنما عمرنا المدن وبنينا المساجد، وأنشأنا المدارس والجامعات وشدنا الملاجىء والمستشفيات فكانت حضارتنا التي هي وليدة حروبنا خيراً وسلاماً

للبشرية ولأوروبا خاصة، واسألوا علماءها ممن هم للحق عارفون وبالصدق متصفون ينبؤوكم عن آثار حضارتنا في نهضتهم إن كنتم لا تعلمون.

يا شباب الإسلام إن رسولكم ﷺ قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف فكونوا أقوياء**».

أما ما يتعلق بمظهر الجماعية في الخلق الإسلامي فحسبك منه صلاة الجماعة وفريضة الجمعة وصلاة العيدين وفريضة الزكاة والصوم والحج: بل حسبك منه قول المسلم في صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] يقولها بصيغة الجمع ولو كان يصلي وحده على رأس جبل إشعاراً بأنه فرد من أمة يتكلم بلسانها ويشعر بشعورها.

وأما ما يتعلق بالواقعية في الخلق الإسلامي فحسبك أنه ممكن التطبيق في كل جيل من الناس وفي كل عصر وفي كل بيئة والتاريخ والواقع يشهدان لما نقول.

وأخيراً يا شباب الإسلام ويا فتياته يا أبناء الإسلام من كل جنس ولون إنَّ عودتكم إلى الخلق الإسلامي الأصيل عودة إلى القوة والعزة والسيادة والكرامة فكونوا

إنسانيين كونوا أقوياء، كونوا اجتماعيين اجعلوا أخلاق الإسلام أمراً واقعاً ملموساً بينكم ثم انظروا أي أمة تكونون وأي تاريخ تحولون وأي مجد تحتلون.



لقد كان الخلق الإسلامي بخصائصه التي ذكرتها من أكبر عوامل ازدهار حضارتنا وتحول خيرها للناس جميعاً لا لجنس معين ولا لأبناء لغة معينة، ومن خصائص حضارتنا أن الذي أقامها دين واحد وهو الإسلام ولكن الذي استظل بظلها جميع الديانات، وأن الذين وضعوا حجر أساسها شعب واحد وهم العرب المسلمون، ولكن الذين أسهموا في ازدهارها ونموها ونشر علومها ومعارفها كانوا من أبناء الشعوب قاطبة، ولعلكم إذا رجعتم إلى التاريخ تجدون هذه الميزة العجيبة فريدة في تاريخ الحضارات، فلا نعلم أن ديناً أقام حضارة ولكنه شمل بظله وعدله جميع الديانات، وأن أمة وضعت أساس

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السابع ـ السنة السابعة ـ رمضان ١٣٨٦هـ ـ كانون الأول ١٩٦٦م.

حضارة، ولكن الذين أسهموا في ازدهارها وانتشارها وعموم خيراتها جميع الشعوب قاطبة بلا استثناء، ولا نعلم مثل ذلك في التاريخ لغير الحضارة الإسلامية التي أقامها الدين الإسلامي العظيم، ولعل من أكبر أسباب ذلك الخلق الإسلامي الذي حدثتكم عن أبرز خصائصه من إنسانية وقوة وجماعية وواقعية.

لقد كان الحاكم المسلم في صدر الإسلام يتسع صدره لآلام الإنسانية جميعها حتى الحيوانات التي لا تعقل ولا تعي شيئاً، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر يوماً في أزقة المدينة فيرى شيخاً كبيراً يسأل الناس المعونة على ما يقوم بشؤون حياته، فسأله عمر: ما أنت يا شيخ؟ فأجاب: رجل من أهل الذمة عجزت عن العمل فأنا أطلب من الناس ما أستعين به على قوت أهلي وعيالي، فقال عمر: ما أنصفناك يا شيخ! أخذنا منك الجزية شاباً ثم ضيعناك شيخاً، وأخذ بيده إلى بيته فأمر أن يقدم له من الطعام ما يقوته ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول له: انظر إلى هذا وأضرابه فافرض لهم في بيت المال ما يكفيهم وعيالهم حتى يستغنوا.

وكان هذا أول تكافل اجتماعي تقوم به دولة من دول الأرض قبل أن تتنبه الدول الحديثة لضرورة قيام

التكافل الاجتماعي في مجتمعاتها بثلاثة عشر قرناً، وإذا علمنا أن الجزية لم تكن ضريبة استغلال واستثمار، بل كانت ضريبة إسهام في نفقات الدولة وإعفاء من الخدمة العسكرية لمن لا يؤمنون بالأهداف التي يحارب من أجلها الجيش الإسلامي، وإذا علمنا أن مبلغها كان زهيداً جداً بجانب ما يدفعه المسلم من زكاة ماله للدولة فقد كانت الجزية على ثلاثة أنواع: للعمال العاملين وهي اثنا عشر درهماً في السنة أي درهم واحد في كل شهر، وأربعة وعشرون درهماً للتجار وذوي الثروات المتوسطة أي درهمان في كل شهر، وثمانية وأربعون درهماً للأغنياء والمقتدرين من أهل الذمة ولو كانوا يملكون الملايين، بينما يجب على المسلم أن يدفع ربع العشر من ماله كله لا من أرباحه وحدها،فلو كان هنالك مسلم وذمي يملك كل واحد منهما مليون درهم لا تأخذ الدولة الإسلامية من هذا الذمي إلا ثمانية وأربعين درهماً فحسب، بينما تأخذ من ذلك المسلم الغني خمسة وعشرين ألف درهم زكاة ماله، إذا علمنا هذا أدركنا مدى سمو الخلق الإسلامي وإنسانية تشريعه. وأن الجزية لم تكن مظهر استلاب لأموال غير المسلمين كما يزعم أعداء الإسلام المتعصبون بل كانت مظهر رحمة وحماة وعفة عن أموال غير المسلمين مع تمتعهم بكل ما يتمتع به المسلمون من حماية لأموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم وتمتع

بحق التكافل الاجتماعي مثلهم عند العجز والشيخوخة والمرض والطوارىء. وقد جاء في إحدى معاهدات خالد بن الوليد مع أهل الذمة في فتوحات العراق هذا النص: (وجعلت لهم أيما شيخ عجز عن العمل وأصبح أهل دينه يتصدقون عليه جعلت له من بيت المال (أي من خزينة الدولة الإسلامية) ما يكفيه وعياله حتى يستغنوا)..

هذه هي الجزية التي يزعم أعداء الإسلام أنها كانت مظهراً من مظاهر استيلاء المسلمين على أموال أهل الذمة وأنها كانت سبباً في دخول كثير منهم في الإسلام شهرياً تهرباً منها وإنه لأمر مضحك هذا القول الذي يقولونه، فلو كان أهل الذمة مطمئنين إلى دينهم مقتنعة به عقولهم راضية به نفوسهم لما تركوه خشية من دفع اثني عشر درهماً في السنة أو أربعة وعشرين أو ثمانية وأربعين، وأي إنسان يترك دينه لو كان مطمئناً إليه خوفاً من دفع هذا المبلغ الزهيد، ولو خير أي مسلم اليوم واقع تحت حكم الاستعماريين أن يخرج عن أمواله كلها أو أن يخرج عن دينه لما وجدنا مسلماً واحداً في الأرض يفضل الاحتفاظ بملايين أمواله على الخروج عن دينه. فكيف هرب الذميون من دينهم لقاء ذلك المبلغ الضئيل من الجزية لو كانوا بدينهم مقتنعين وإليه مطمئنين.

ولم تقتصر هذه الرحمة وهذه الإنسانية من الحاكم

المسلم أو الغني بالإسلام على إنسان وحده وهو شيخ عاجز عن العمل، بل شملته وهو مريض، فمن المعروف تاريخياً أن أول من أفرد المجذومين في مستشفى خاص وجعل لكل مجذوم خادماً يخدمه هو الوليد بن عبدالملك، فعل هذا حين مر بقوم مجذومين يسألون، فأمر بأن تكون لهم دور خاصة بهم للعلاج وأن يخصص لكل مريض منهم من يخدمه. ولم تقتصر عنايتهم بمثل هذا النوع من المرض فحسب بل شمل جميع المرضى، فكانت المستشفيات في حضارة الإسلام تملأ عواصم الإسلام ومدنها الكبرى والصغرى، وكان العلاج فيها والدواء مجاناً يذكرني الآن ما قرأت عن مستشفى في دمشق أقامه البطل الإسلامي العظيم نور الدين الشهيد، وقد جاء في وقفيته التي أوقفها أن يرسل الدواء لكل من يطلبه ولو كان في بيته، وكان فيه شتى الأطباء وعلى اختلاف اختصاصهم وكانت علامة الشفاء عندهم أن يأكل المريض رغيفاً كاملًا ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة، فإذا أصبح في دور الشفاء هذا دخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أعطي بدلة من الثياب جديدة، ومبلغاً من المال يكفيه إلي أن يصبح قادراً علي العمل. ومن مزايا مستشفيات الحضارة الإسلامية أنها كانت مجاناً للجميع: للغني والفقير، للقريب والغريب، لقد كانت مهمتها إنسانية خالصة لا تفرق بين إنسان

وإنسان، ومن طريف ما يذكر أن رجلًا من فضلاء الأعاجم جاء دمشق وزار مستشفاها فأراد أن يختبر مقدار معرفة أطبائهم بالطب فادعى أنه مريض فأدخل المستشفى وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه علم أنه غير مريض وأنه إنما أراد اختبار أطبائه، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمن والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها: إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام فعرف الأعجمي أنهم فطنوا لقصده، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها.

ولم تقتصر عنايتهم على الإنسان من شيخ أو مريض أو ذي عاهة بل تعدت ذلك إلى الحيوان ومن المشهور قول عمر رضي الله عنه: والله لو عثرت دابة في أقصى العراق لخشيت أن يسألني الله عنها يوم القيامة لِمَ لم أعبد لها الطريق، فهل بعد هذا الشعور بالمسؤولية والعناية بالحيوان خلق إنساني أسمى من هذا الخلق.

ولقد شمل هذا الخلق جميع فئاتهم، فكلهم كان يرعى الله في معاملته أكثر مما يرعى الناس.

وفي ترجمة البخاري رحمه الله أنه كانت له تجارة يبيعها بالجملة للتجار، فجاءه تاجر مرة عند المساء ورغب إليه أن يشتري منه صفقة ودفع له فيها مبلغاً معيناً

فطلب البخاري أكثر من ذلك، ثم لما افترقا تندم البخاري على أنه لم يبع الصفقة بما دفع له ذلك التاجر من ثمنها وتمنى أن يعود ليوافق على بيعها بالسعر الذي حدده التاجر، ولكن التاجر عاد إليه في اليوم الثاني راضياً أن يشتري الصفقة بما طلب البخاري فيها وإذا البخاري يقول له: بل أبيعكها بالسعر الذي دفعته بالأمس (أي بأنقص كثيراً مما دفعه التاجر اليوم) فعجب التاجر وقال: بالأمس رفضت أن تبيعنيها بالثمن الذي تطلبه أنت اليوم، فأجابه الإمام البخاري رحمه الله: بالأمس بعد أن غادرتني ندمت على أنه لم أبعها لك بما دفعت فيها من ثمن، ونويت في نفسي أنك لو عدت حينئذ لبعتكها بما دفعت ثم لم تعد، وإني لأخجل من ربي أن أنكث عهداً عزمت عليه وأن أنقض ما نويت فخذها بارك الله بك.

وآخر ما أذكره في هذا المقام عن هذه التي كانت عاملاً قوياً في نهضتنا وقوتنا ما حدث لعبدالله بن المبارك الإمام المحدث والمجاهد الشجاع، الذي كان يحج سنة ويغزو سنة أنه كان في طريقه إلى الحج مع بعض إخوانه فمروا في طريقهم بقرية فرمى الموكل بالطيور والدجاج معهم للطعام في حجهم دجاجتين ميتتين على مزبلة وسار رفاقه وكان ابن المبارك متأخراً عنهم قليلاً، فرأى فتاة صغيرة تخرج من بيت حقير وتلقف الدجاجتين الميتتين

في حرقة وتضعهما داخل ثيابها ثم تعود مرتعشة إلى بيتها، فعجب ابن المبارك من صنيع الفتاة، فطرق بابها فسألها عن سر أخذها للدجاجتين الميتتين وهما لا يجوز أكلهما فأخبرته أن لها أخوين صغيرين وكان أبوهما قد مات وخلف لهما ما يعيشان ولكن بعض الظلمة تعدى على أموالهم فأخذها فأصبحوا.. ثم قالت وهي تبكي ولقد مضى علينا ثلاثة أيام لم نذق نحن الثلاثة طعاماً فلما رأيت الدجاجتين الميتتين بادرت إليهما لآكلهما مع أخوي الصغيرين، فبكى عبدالله بن المبارك ونادى رفاقه وسأل خازن نفقتهم وقال له: كم نحتاج إلى رجوعنا إلى بلدنا فقال له: مائة دينار، فقال ابن المبارك: أبق معك ما نحتاج إليه لعودتنا وادفع الباقي إلى هؤلاء الصبية، فهذا عند الله أفضل مما قصدنا إليه ثم عاد ولم يحج.

إن هذا الفهم العميق لروح الإسلام وأهدافه وأخلاقه هي التي أقامت دعائم نهضتنا وقوت من بنيان حضارتنا، فهل ترون هذه الأخلاق النبيلة العظيمة خيراً من أخلاق هذه الحضارة المادية التي تخنق الروح وتقتل فضائلها؟ كلا أبداً أيها الأخوة فإلى أخلاق الإسلام أيها المؤمنون.

أخلاقنا في الأمس واليوم(*)

لعل أعظم تأثير في نفوس العرب في تحولهم من الجاهلية إلى الإسلام ناشىء من القرآن الكريم. فلقد كانوا ذوي أذواق نظرية في فهم الكلام البليغ والتأثر به، حتى إن بعضهم وقد كان مشركاً. سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، فما لبث ذلك الأعرابي حين سماعه هذه الآية الكريمة أن خر ساجداً على الأرض، فقيل له: لم فعلت ذلك؟ فقال: سجدت لبلاغة هذا الكلام. وكلنا يعلم قصة الوليد حين أرسلته قريش ليفاوض رسول الله ﷺ على تركه دعوته لقاء ما يطلب من مال أو ملك أو جاه، فلما

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الثامن ـ السنة السابعة ـ شوال ١٣٨٦هـ ـ كانون الثاني ١٩٦٧.

قرأ عليه ﷺ أوائل سورة فصلت (وتسمى بالسجدة في بعض المصاحف) ووصل الرسول ﷺ إلى تلاوة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣] وضع الوليد يده على فم الرسول وناشده الله والرحم أن يكف، ثم رجع إلى قومه فقال: أرى أن تخلوا بين هذا الرجل وبين ما يقول ثم أخذ يصف لهم ما سمعه من القرآن بقوله: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما سمعته قط إن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق، وأنه ليعلو وما يُعلى عليه.. هكذا بلغ تأثير القرآن في نفوس المشركين الذين سمعوه وبذلك أسلم كثير منهم، فلما كانت تتنزل آيات القرآن على الرسول الكريم وكان يتلوها عليهم كانت تفعل في نفوسهم فعل السحر، وكانوا يبادرون إلى تنفيذها لأن هذا أول شرط من شروط الإيمان ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ثم إن الرسول ﷺ كان هو القدوة المثلى فيحل ما أحل الله في كتابه، ويحرم ما حرم الله، ويتخلق بما أمره الله أن يتخلق به، ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ أجابت: كان خلقه القرآن، وكذلك كان صحابته رضوان الله عليهم وهم الذين كانوا يتلون قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحـزاب: ٢١] وانتقلت هذه الأخلاق إلى الجيل الذي تلاحم مع شيء عمن سبقهم، وهم التابعون، وهكذا كانت الأسوة برسول الله ﷺ تتضاءل جيلاً بعد جيل، وفهم القرآن والتأثر به يضعف شيئاً بعد شيء، حتى أصبحنا الآن نقرأ القرآن ونردده كالببغاوات دون فهم لمقاصده ودون تدبر لمعانيه، وأصبحنا ننظر إلى رسول الله ﷺ كإنسان يستحيل اتباعه والعمل بهديه بل اكتفينا أن نذكره ﷺ تبركاً وتيمناً ونسينا تماماً قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وصار أكثر المتدينين يجهلون سيرة الرسول جهلاً تاماً، ويرون الخير كل الخير في اتباع من يعتقدون فيهم البركة والصلاح، ويلتمسون لهم الأعذار في مخالفتهم للشريعة ولهدي الرسول ﷺ، مع أنه لا قدوة إلا رسول الله، ولا هدي إلا من كتاب الله وسنة رسول الله. وبذلك أصبح القرآن في بيت كل مسلم مغطى بغلاف مطرز للبركة فقط، والله إنما أنزله لتدبر آياته وتفهم عظاته.

إن من الواجب أن نقوي لغتنا العربية ونتذوق بيانها وبلاغتها حتى نستطيع أن نتذوق بلاغة القرآن وبيانه، فيؤثر فينا من جديد تأثيراً ينتزعنا من أخلاقنا السيئة وأوضاعنا الاجتماعية الفاسدة، كما يجب علينا أن نعكف

على قراءة سيرة رسول الله ﷺ قراءة موعظة واعتبار لنتبين مواقف العظمة والخلود في سيرته ﷺ ونحاول أن نتقصى هديه ونتبع أثره ونتخلق بأخلاقه، ولست أقصد بذلك ما يفعله كثير من الجامدين الجاهلين أن نتمسك بالمظاهر من حياته وننسى حقيقة أخلاقه الاجتماعية والسياسية والتربوية، فيقيم هؤلاء الدنيا ويقعدونها لمخالفة سنة بسيطة من سنن رسول الله ﷺ ولا يبالون بحث الناس على اتباعه في جهاده وعبادته وزهده ونصحه للمسلمين وأسفه على أعراض الناس عن اتباع الهدى الذي جاءه حتى أنزل الله عليه قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦] هذه هي أخلاق الرسول ﷺ: جهاداً وعملاً وتضحية وتهذيباً وعبادة، لا اعتزالاً عن الحياة وتركاً للأشرار يسرحون فيها ويمرحون.

ومما أذكره من أسباب ضعف أخلاقنا ضعف الدول الإسلامية في العصور المتأخرة، فكان همّ كل دولة مسلمة أن تغير على جارتها الدولة المسلمة الأخرى وتنقص من أطرافها أو تحاول ابتلاعها والقضاء عليها، ولقد كان لهذا تأثير خطير على الأخلاق الإسلامية التي أرادها الله قوة وخيراً وسلاماً.

ومما أذكره من أسباب ضعف الخلق الإسلامي ما يبذله الاستعمار منذ مئات السنين لإقصائنا عن الإسلام وإبعادنا عن التخلق بأخلاقه، لما يعلمه من أن رسوخ قدمه الاستعماري في بلاد الإسلام لا يتم إلا إذا قضي على حقيقة الإسلام، وبقي شبحاً لا روح فيه، وقد سلك الاستعمار ولا يزال يسلك للوصول إلى هذه الغاية سبلاً شتى خداعة براقة ليصرف أنظار شباب الإسلام خاصة عن مصدر قوتهم ومبعث حياتهم، فأفسد التعليم وحرف حقائق التاريخ وشوه سمعة سلفنا العظيم.

ومن المؤسف أن كثيراً من شبابنا وفتياتنا وقعوا في الفخ فظنوا أن الرقي والحضارة والتقدم لا يكون إلا بترك الإسلام واطراح آدابه، فتملص هؤلاء من قيود الخلق الإسلامي الذي كان مصدر قوتنا، وضعفت شخصية هؤلاء المائعين والمائعات، وذابت في الحضارة الغربية وأخلاقها وهي التي أخذت أوروبا وغيرها تشكو منها في الآونة الأخيرة ويعلن علماؤها ومفكروها أن حضارتهم في انهيار مع تقدمهم العلمي فقد خسروا إنسانيتهم الرحيمة ويدللون على ذلك بإحصاءات الجرائم الأخلاقية والأمراض النفسية والعصبية، فإذا كان هذا هو موقفهم أنفسهم من حضارتهم فكيف يجوز لشبابنا أن يخدعوا ببريقها عن أساس كيانهم ووجودهم. استيقظوا لهذه الدسائس يا فتيان الإسلام وفتياته أنقذوا أنفسكم قبل أن

تهلكوا أمتكم فليس كل جديد مفيداً ولا كل قديم ضاراً، وإنما المفيد والضار موجودان في الشيء بقطع النظر عن قدمه وحدوثه.

احذروا يا شباب الإسلام أن تقعوا في الفخ واسمعوا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

تلك هي نصيحة أخ عرف الحياة حلوها ومرها، ودرس الحضارة الغربية في مستقرها ومبعثها، وعاشر شعوب هذه الحضارة من كبيرها إلى صغيرها، ولعلي أوفق إلى أن أطلعكم على قليل مما اطلعت عليه نصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وسائل الاستعمار لإضعاف المسلمين (*)

إن الاستعمار لم يعد يجرؤ أن يواجه المسلمين بالصد عن الإسلام جهاراً بعد أن رأى الوعي الإسلامي ينتشر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ولكنه أخذ يخاتل ويراوغ، باسم العلم أحياناً عن طريق المستشرقين، وباسم الهداية أحياناً عن طريق المتحللين والمنحرفين، كل هؤلاء يعملون لأهداف الاستعمار التي يرمي من ورائها إلى إيقاف الوعي الإسلامي عن مده الجارف، إبقاء على سيطرته ونفوذه في بلاد العالم الإسلامي ليستمر ممعناً في سلب خيراته وسرقة ثرواته.

ولما كان الاستعمار يعلم علم اليقين أن الخلق الإسلامي إذا عاد حياً في قلوب المسلمين ونفوسهم من جديد، فسيعيد الإسلام معجزته الأولى مرة أخرى، أخذ يبذل

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد التاسع ـ السنة السابعة ـ ذو القعدة ١٣٨٦هـ ـ شباط ١٩٦٧م.

كل جهده لإشاعة الفساد في المجتمع الإسلامي، وزرع الشكوك في العقل الإسلامي، وقتل الطموح في العزم الإسلامي، وبث الفرقة في الصف الإسلامي فتعاونت جميع أجهزته الفكرية والسياسية والدعائية لتحقيق خمسة أهداف رئيسية يسعى إلى تحقيقها في المجتمع الإسلامي.

١ ـ شن الافتراءات على الإسلام تحت ستار العلم والبحث، وزرع الشك في نفوس الجيل الإسلامي المعاصر نحو صلاحية الإسلام لهذا العصر، واتفاقه مع العلم، وإمكانه تحرير المسلمين من خمولهم وتخلفهم، وجعلهم أمة قوية تلحق بالأمم المتمدنة وتقف معها على استواء، وأكبر من قام بهذا العبء هم المستشرقون المتعصبون، فقد زرت أوروبا أكثر من مرة أولها عام ١٩٥٦ وزرت عواصمها من الشمال إلى منتصف الجنوب، وزرت انجلترا بجميع أقسامها، واختلطت بأكثر المستشرقين فيها فتبين لي أنهم بين رجلين: رجل دين كهنوتي عكف على دراسة الإسلام ليتصيد مقاتله في زعمه، ويكشف عن عيوبه وبطلانه فيؤدي بذلك غرضاً للكنيسة التي ينتمي إليها، والتي ما تزال تنفق ملايين الدولارات لصد تيار الإسلام الجارف وتشويه سمعته بين من لا يعرفون الإسلام، وبين استعماري يتخذ من دراسة الإسلام وسيلة لمعرفة طبيعة الشعوب الإسلامية وما

يتمكن به الاستعمار من السيطرة عليها، وهذان الصنفان من المستشرقين هما الغالبان على كل من يشتغل بالاستشراق وعلوم الإسلام وتاريخه، وقد كان شيخهم في القرن الماضي ذلك المستشرق اليهودي المجري «جولد تسيهر» فقد كان شيخ المستشرقين وحجتهم وعلمهم في عصره، ولا تزال كتبه حتى اليوم هي المرجع الرئيسي للدراسات الإسلامية في مختلف جامعات أوروبا، كما شاهدت ذلك بنفسي حين زرت تلك الجامعات عام ١٩٥٦ موفداً من جامعة دمشق للاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية في تلك الجامعات، والذي يقوم اليوم بنفس هذه المهمة كثيرون في مقدمتهم المستشرقون «جب» و«غيوم» و«شاخت» فهؤلاء يتظاهرون في أبحاثهم وكتبهم وبخاصة لطلابهم المسلمين أنهم حياديون منصفون وهم في الحقيقة يستغلون جهل أكثر الطلاب الإسلاميين عندهم بالإسلام وجهل الغربيين به أيضاً، فيدسون السم في الدسم، ويخلطون الباطل بالحق، زعماً منهم بأنهم باحثون لا يريدون إلا الوصول إلى الحقيقة، ولكن الذي يطلع على أبحاثهم من علماء الإسلام اليقظين يروعه ما يتحلون به من مكر ودس وتحريف للنصوص، وتشويه لمقاصد الشريعة، ومحاولة لقلب الحقائق الإسلامية رأساً على عقب، وأهم ما يوجهون جهودهم إليه الآن تهديم «السنة»

باعتبارها مصدراً ثانياً من مصادر التشريع في الإسلام، وباعتبارها جاءت مفصلة لما أجمل من كتاب الله، أو موضحة لما أشكل على غير العارفين بالقرآن فهمه، ولما كانت أحكام الفقه التي أخذت من السنة أو استنبطت منها تشكل تسعة أعشار الفقه، كان نسف السنة وإثبات تزويرها على الرسول كما يدعون كان ذلك نسفاً لأهم تراث المسلمين وهو الفقه الإسلامي وثغره ينفذ إليها من يشاء للتحلل من أحكامه وشرائعه، حتى قسم الأخلاق في الإسلام وهو الذي صرح عنه رسول الله ﷺ بقوله: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**، حتى هذا يزعمون أن أصول الأخلاق الإسلامية مسيحية أو يهودية، ليجردوا الإسلام من كل مظهر سماوي وليؤكدوا ما يزعمون من أن الإسلام ليس إلا ديناً ملفقاً من اليهودية والنصرانية، وجل دين الله أن يكون كذلك، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وطبيعي أن ينشأ عن دعواهم، عدم أصالة الخلق الإسلامي الذي فتح الدنيا وأقام الحضارات، وهذا هو ما يسعون إليه سعياً حثيثاً.

٢ ـ وثاني ما يهدف إليه الاستعمار اليوم بمستشرقيه ومبشريه وكتابه تفكيك عرى الوحدة التي أقامها الله بين المسلمين وجعل الحج من أبرز مظاهرها، فلقد كانت هذه الوحدة فيما مضى أكبر عامل من عوامل اندحارهم

في الحروب الصليبية وفي كل مؤامراتهم على الدولة الإسلامية خلال مائتي عام. فحرضوا الأتراك في أوائل القرن الحاضر على المناداة بالقومية الطورانية ليضعفوا شأن الخلافة ويسهل عليهم القضاء عليها، كما بثوا في الفارسيين القومية الفارسية وفي المصريين القومية الفرعونية، وفي السوريين القومية الفينيقية أو السورية وأغرب من ذلك أنهم يبثون اليوم في فريق من شباب الباكستان القومية الباكستانية، مع أن الباكستان كما نعلم جميعاً لم تقم إلا على أساس الإسلام، ولم تنفصل عن الهند إلا لأن المسلمين فيها يختلفون عن الهنادكة في كل شيء: في عقائدهم وعاداتهم وأبطالهم ومثلهم وأهدافهم فمتى كان للباكستان قومية خاصة بها تنفرد عن شتى المسلمين في المشارق والمغارب؟ والمستعمرون يريدون أن ينشؤوا شيئاً اسمه القومية الإفريقية ليقطعوا كل صلة بين مسلمي إفريقيا وبين مسلمي العالم، وليسهل عليهم بعد ذلك إدخالهم في النصرانية بعد أن فشلت جهود إرسالياتهم وحكوماتهم قبل الاستعمار فشلاً ذريعاً في الوصول إلى تمام ما يريدون من هذه الغاية.

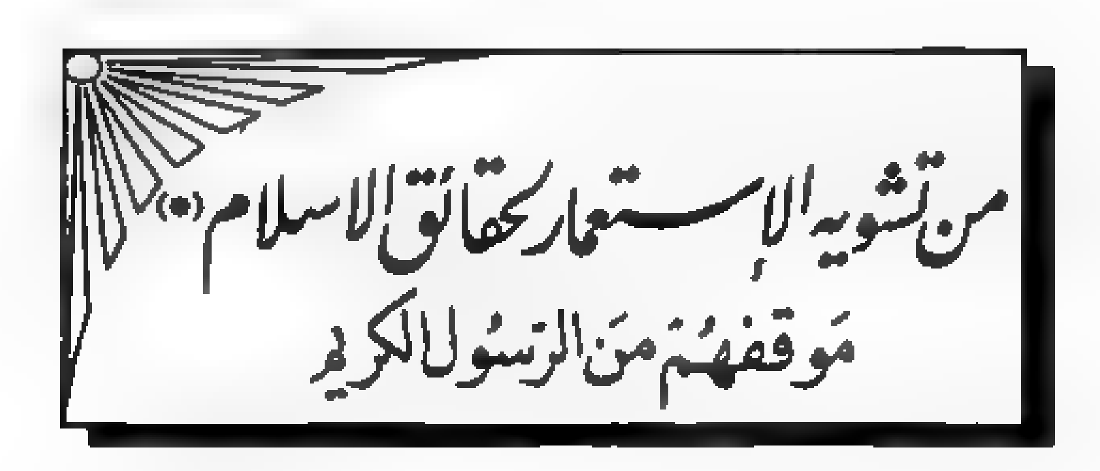
٣ ـ ومما يسعى إليه الاستعمار تمهيد عقول الشباب المسلم وفتيانه للغزو الفكري الاستعماري مهما كانت أشكاله وألوانه. فهم مهما اختلفت سياستهم متفقون

على أن الإسلام لا يصح أن يبقى في الوجود لأنه خطر على مصالح الفريقين على السواء، ولكن دين الله الحق لا يهزم وكلما أنفقوا من أموال ليشوهوا الإسلام ويصدوا شبابه عنه باءت جهودهم بالفشل مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦] وصدق الله العظيم وجلت عظمته فإن هذه الآية لا تشمل كفار قريش فحسب، بل وجدناها تشمل أعداء الله جميعاً وتنتهي إلى ذات النتيجة وسبحان من أنزل القرآن هدى وتبصرة لأولي الألباب.

٤ ـ ومما يهدف إليه المستعمرون إشاعة الانحلال الأخلاقي في الشباب والفتيات عندنا، فهم يزينون لهم الخروج على آداب الإسلام وأخلاقه بحجة أنها رجعية وتخلف، ويزينون لهم الانصراف إلى العبث واللهو والانحلال وفقدان المثل الأعلى وضياع الشخصية بحجة أن ذلك كله تقدم وتمدن وأنه علامة الرقي والحضارة، هذا مع أنهم في بلادهم يشكون من انحدار الأخلاق ويرون ذلك نذير انقراض في حضارتهم ومدنيتهم، إنهم يفعلون ذلك فيشجعون الأدب الإباحي والكتاب أو الشعراء الإباحيين، بل إنهم يشجعون الكتابة بالعامية ويزينونها لسخفاء العقول وضعفاء الشخصية، ويسلطون الأضواء على كاتب أو قصيص أو شاعر تهوي به طبيعته

المنحرفة وشذوذه الجنسي نحو الرذيلة والإباحية، ويشجعون الأدب غير الهادف أو غير الملتزم أي الأدب الذي لا يتحدث عن مصائب أمته وبلادها وويلاتها كل ذلك ليصرفوا جيلنا الناشيء عن بناء المجد، وعن العيش مع أمته وبلاده في أحزانها وأفراحها.

يا شباب الإسلام ويا فتياته، تنبهوا لهذه الدسيسة الخطيرة واعرفوا أعداءكم من أصدقائكم، يا شباب الإسلام احذروا مثل هذه الدسائس فالأمة تريد منكم أن تكونوا رجالًا وأبطالًا، ويا فتيات الإسلام احذرن هذا الإغراء فالأمة تريد منكن أن تكن مثل خديجة وعائشة وفاطمة وأسماء والخنساء فأعدن التاريخ يا فتيات، أعيدوا التاريخ يا فتيان فما خلدت أمتنا بالخلعاء الماجنين والخليعات الماجنات وإنما خلدت بالعاملين والعاملات، والعالمين والعالمات والصالحين والصالحات إن الأب الماجن والأم الماجنة لا ينجبان إلا أبناء ماجنين. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى عظماء وعلماء وأبطال خالدين.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فاستجيبوا لله واعرضوا عن نداء الشيطان ومن يفعل ذلك يكن من الخالدين.



كان الغربيون في القرون الوسطى حيث أثيرت حميتهم للحروب الصليبية يتقبلون كل كذب وافتراء على رسول الله ﷺ، وكانت تلك الأكاذيب والافتراءات مما يندى لها جبين طالب الحق خجلًا وحياءً، وفي العصور الحديثة بدؤوا يخففون هذه الافتراءات وبدأ أكثرهم يميل إلى تصديقه في ادعاء النبوة على أن ذلك أمر خيل إليه وليس أمراً واقعاً. ولو أردنا أن نستقصي كل الافتراءات التي يلبسونها ثوب العلم اليوم نحو الرسول الكريم ﷺ لطال بنا المقام ولكني أقتصر في حديثي هذا على أهمها وأكثرها فائدة.

فمما يزعمونه أن محمداً ﷺ بدأت دعوته كرسول

(*) مجلة حضارة الإسلام - العدد العاشر - السنة السابعة - ذو الحجة ١٣٨٦هـ - آذار ١٩٦٧م.

مصلح ولم يكن يخطر في باله أن يكون قائداً حتى إذا هاجر إلى المدينة بدأت تجول في ذهنه فكرة إنشاء دولة وقيادتها، ويستدلون لذلك بأنه كان في مكة قبل هجرته مسالماً لا يقاوم أعداءه بحرب ولا قتال، بل كانت الآيات التي تنزل عليه في مكة تأمره بالصبر واحتمال الأذى، فلما انتقل إلى المدينة بدأت تنزل عليه آيات القتال، وخاض مع مشركي قريش معارك أولها معركة بدر، وخاض مع يهود المدينة معارك حتى أجلاهم عنها، ويقولون أن محمداً ﷺ قد تخلى في المدينة عن صفة الداعية إلى الهدي والتوحيد. واتصف بصفة المقاتل الذي لا يهدأ له بال حتى يقضي على أعدائه. وفي الحق أن تصوير أمر الرسول ﷺ بهذا الشكل وتفسير تغير حياته في المدينة عن حياته في مكة بهذا التفسير لا يخلو من مغالطة أو تجاهل لطبيعة الإسلام ولطبيعة الحياة نفسها، فمن المعلوم أن حياته ﷺ قبل النبوة وهي أربعون سنة كانت في مكة بين أهله وعشيرته، وأن ابتداء رسالته كانت في مكة. ومكة يومئذ مقر الوثنيين في جزيرة العرب وعاصمتها الدينية، وقريش كانت سدنة الكعبة وحماة الوثنية، فابتدأ ﷺ الدعوة إلى رسالته سراً ثلاث سنين تقريباً، كان يدعو أقرب الناس لله وأشدهم تصديقاً له، وأكثرهم قابلية لما جاء يدعو إليه، وكانوا يجتمعون سراً في دار الأرقم حتى أذن الله له بالجهر بالدعوة ـ وأتباعه

مغالطة

قليلون ـ مع كثرة الوثنيين ووفرة زعماء قريش ممن يرون في الديانة الجديدة التي يدعو إليها محمد رسول الله ﷺ تحقيراً لآلهتهم، وتسفيهاً لأحلامهم، فلا بد من مقاومتهم له بشتى وسائل المقاومة، وهم أصحاب الحول والطول والقوة والنفور، بينما لم يكن إلا المستضعفون من العبيد والنساء والفقراء عدا أفراداً كانت لهم مكانتهم في قريش لكنهم يستحيل أن يفعلوا شيئاً، فهل يعقل في هذه الفترة وفي هذا الجو ذاته أن يمتشق رسول الله الحسام لقتالهم أنهم بلا شك إن فعل ذلك قاتلوه وقاتلوا من معه قاضون على الدين الجديد في أيام معدودات. فلم يكن لرسول الله بد من الصبر خلال ثلاثة عشر عاماً حتى إذا كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية وأصبح للدين الجديد موئل وأنصار أذن لصحابته بالهجرة إلى المدينة ثم هاجر هو بعد ذلك مع صاحبه أبي بكر، فلما وصل إلى المدينة كان الإسلام يدخل كل بيت من بيوتها. وهنالك بدأ رسول الله يعمل لإفهام قريش قوته الجديدة حتى لا تفكر في غزوه رغبة القضاء عليه ومن معه، وكان أول ما فعل من أجل ذلك تعرضه لقافلة قريش وهي عائدة من الشام، ولم يكن يريد يومئذ قتالاً، إنما كان يهدف في الظاهر إلى أمرين إفهام قريش قوته الجديدة وخطر مرور قوافلها عن طريق مدينته، وأن يسترد الأموال التي أجبر المسلمون على تركها فراراً بدينهم وفي هذه الأموال نقود

وسلع وأراضي وغير ذلك ولكن قريشاً أبت إلا القتال بعد أن فاتت العير فاستشار رسول الله صحابته في القتال فكلهم أشاروا عليه به مع قلة عددهم واستعدادهم، وكانت أول المعارك بينه وبين أعداء الدعوة الذين لم يكفوا عن كيدهم وتأليب الجموع بغية القضاء عليها. ثم تتالت المعارك بعدئذ.

هذا شيء، وشيء آخر هو أن الإسلام دين واقعي فهو يعلم أن من طبيعة الشر أن يكيد للخير حتى يقضي عليه، فلا يسمح الإسلام لأعدائه وهم أعوان الشر والوثنية والفساد أن يتغلبوا عليه ويقضوا على أهدافه في إنقاذ العرب والعالم من الإثم والرذيلة والفساد، إن الذين يعترضون على الرسول ﷺ بأنه أصبح في المدينة محارباً بعد أن كان في مكة مسالماً إنما كانوا يريدون منه أن يكون درويشاً من هؤلاء الدراويش يستسلم للقوة ويخضع للعدوان، وما أرسل الله محمداً ليكون كذلك، إنما أرسله ليكون قدوة لقادة الهداية كيف يكافحون عن عقيدتهم، وكيف يتحملون المشاق والصعاب في سبيل هداية الناس وإرشادهم ولهذا قال الله له ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومما يزعم هؤلاء المستشرقون أو المبشرون المتعصبون أن محمداً ﷺ كان يميل إلى النساء ولذلك

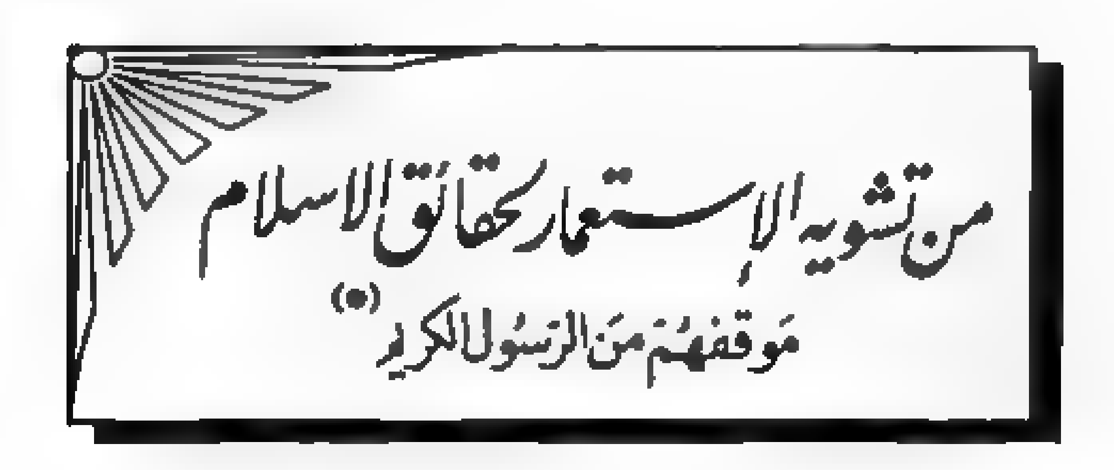
سمح لأتباعه بتعدد الزوجات وتوفي هو عن تسع زوجات، وأنا لا أريد أن أتكلم عن أخلاق الغربيين وسعيهم وراء شهوتهم ولكني أذكر ما جرى بيني وبين رئيس الآباء اليسوعيين في إيرلندا الجنوبية وهي كاثوليكية قد انفصلت منذ عهد قريب عن بريطانيا لاختلافها معها في الدين كما هو معلوم، فقد كان من حديثي مع رئيس اليسوعيين أن سألته: لماذا لا تزال كتبكم وبخاصة الكتب التي تدرس للطلاب في مدارسكم مليئة بالطعن البذيء الفاحش على نبينا ﷺ فأجاب إننا نحن المسيحيين لا نحترم رجلًا يعدد زوجاته، فسألته: هل سليمان الحكيم عندكم من الأنبياء المحترمين أم لا؟ قال: بلى، قلت له: إن التوراة التي بين أيديكم تذكر أنه كان له من الزوجات سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري وكن كلهن باعتراف التوراة من أجمل نساء زمانهن أي أنهن في الغالب حين اختارهن كن صبايا عذارى، فلماذا تحترمون من كانت عنده ألف امرأة صبية جميلة ولا تحترمون من تزوج تسعة لأغراض دينية واجتماعية ليس فيهن إلا صبية واحدة وهي عائشة والباقيات ما بين ذوات أولاد وما بين عجوز مات زوجها عنها فضمها إليه ﷺ ليقوم بكفالتها والإنفاق عليها؟ وهنا أفحم الأب اليسوعي ولم يعرف كيف يجيب ثم حول الحديث إلى غيره، أقول هذا للتدليل على أن تعدد الزوجات[1] كان أمراً معهوداً عند

أنبياء بني إسرائيل وما رأينا نبياً اقتصر على واحدة وكذلك كان الأمر في كل الأمم في العصور الماضية بل إن بعض ملوك فرنسا كانت له زوجتان بعلم الكنيسة ورضاها ومباركتها، فإثارة الشبهة حول رسول الله ﷺ في هذا الموضوع تعتبر تعصباً مقيتاً، بل هو نفاق أخلاقي لا مبرر له إلا ما جبل عليه الغربيون من النفاق في ادعاء الأخلاق وهم عنها بعيدون.

لقد كان رسولكم ﷺ أكمل إنسان عرفته الإنسانية، ومن كماله تعدد زوجاته لأغراض مشروعة فصلوا على رسولكم واسألوا الله له الوسيلة والدرجة، واجتهدوا أن تتفهموا سيرته وتنهجوا نهجه والله يقول لكم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) انظر كتاب «المرأة بين الفقه والقانون» للمؤلف من منشورات دار الورّاق ـ بيروت.



إنا ممّا شوهه الاستعمار بمعونة المستشرقين المتعصبين والمبشرين نحو الإسلام ورسوله الكريم، زعمهم بأن حياة الرسول ﷺ كانت حياة شهوة ولذة واستدلوا لذلك بتعدد زوجاته زاعمين أن هذا التعدد دليل الميل الشديد إلى النساء، وقد بينت فيما سبق سخافة هذا الزعم بمقارنته بما كان لسليمان عليه الصلاة والسلام من ألف زوجة من أجمل نساء عصرهن ما بين حرة وجارية، بينما كانت زوجات الرسول كلهن وهن لا يتجاوزن تسعاً ثيبات ومنهن أمهات أولاد كأم سلمة رضي الله عنها ولم يتزوج امرأة صبية عذراء إلا عائشة، ولو كان ﷺ عنده ميل شديد إلى النساء كما يزعم أعداء الإسلام لاختار

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الأول والثاني ـ السنة الثامنة ـ ربيع الأول والثاني ١٣٨٧هـ ـ حزيران وتموز ١٩٦٧م.

زوجاته كلهن من الصبايا العذارى، ولو أراد ذلك لاستطاع إذ كان أصحابه والمؤمنات الصحابيات يرين أشرف شيء في حياتهن أن يكن زوجات لرسول الله ﷺ، ويجب أن لا ننسى أن أول مرة تزوج فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام كان قبل البعثة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهذه السن تمثل أشد مراحل الإنسان قوة وشهوة، ومع هذا فقد تزوج خديجة وهي في سن الأربعين بطلب منها أي أنها كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة، فهي قد أشرفت على سن الأياس ودخلت مرحلة الكهولة بينما كان عليه الصلاة والسلام في أشد مراحل العمر قوة وشباباً.

وقد استمر ﷺ مقتصراً على خديجة وحدها بعد الرسالة أي نحواً من خمس وعشرين سنة حتى توفيت رضوان الله عليها وكان سنه قد شارف على الخمسين عندئذ تعددت زوجاته، والإنسان في سن الخمسين أقل قوة ورغبة في النساء والشهوات والملذات منه في سن الخامسة والعشرين.

وبذلك تعلمون ما في اتخاذ المبشرين والمستشرقين المتعصبين من تعدد زوجاته دليلًا على شهوانيته وميله إلى الملذات من كذب وافتراء وتشويه لوقائع التاريخ، ويضاف إلى ذلك أنه كان مع زوجاته يعيش عيش التقشف

والخشونة هذا مع ما كانت ترد إليه من أموال الغنائم وهدايا أصحابه ما لو أراد أن يسترضي زوجاته ويعيش مرفهاً منعماً لكان له ما أراد، ولكن كن يعانين من خشونة العيش ما حملهن على أن يجتمعن ويطلبن إليه الترفيه عنهن فصعب ذلك عليه ﷺ وهجرهن نحواً من شهر حتى ظن أكثر الصحابة أنه طلقهن جميعاً ثم نزل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٥].

فبدأ بعائشة وتلا عليها الآيتين ورغب إليها أن لا تستعجل حتى تستأذن أبويها في ذلك فقالت له: أفيك أستأذن أبوي، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وكذا

فعلت كل زوجة بمفردها دون أن تعلم ما قالت زميلاتها وسر رسول الله ﷺ بذلك وبقيت حياة أزواجه من التقشف وخشونة العيش كما كانت (حتى أن السيدة عائشة لتقول: لقد كان يمر علينا الشهر والشهران ولا يوقد في بيتنا نار إن هو إلا الخبز والماء أو التمر والماء، ثم تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولقد توفي وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد إلا نصف قرص من شعير على رف لي).

هكذا كانت حياته عليه الصلاة والسلام فهلا ترونها أكبر رد على تخرصات هؤلاء المتعصبين من مستشرقين ومبشرين؟ ثم هل قرأتم في تاريخ زعيم من زعماء العالم خضعت له بلاد شاسعة كجزيرة العرب بأكملها، ثم يظل على تقشفه وزهده وإعراضه عن الدنيا كما كان محمد رسول الله ﷺ. لقد بدأ الرسول دعوته وهو فريد وحيد متقللاً من الدنيا زاهداً فيها ثم نجحت دعوته حتى أصبح زعيم جزيرة بلا منازع ومع ذلك فلم تتغير حياته، ولم تتبدل معيشته، ولم ينتقل من عسر إلى يسر، ومن ضنك إلى سعة فمن من عظماء التاريخ في القديم والحديث عاش كما عاش واستقام في حياته كما استقام ﷺ ولم يتوسع بعد أن نصر الله دعوته في دار ولا في لباس ولا في طعام ولا في شراب، بل ظل كما هو، وكما عرف

عنه في أول أمره، أليس ذلك من دلائل الصدق في رسالته، وأنه لم يرد بها دنيا ولا جاهاً ولا ملكاً، وإنما اختاره الله لإنقاذ أمته والعالم كله مما كان يحيط بالناس من شر وفساد؟

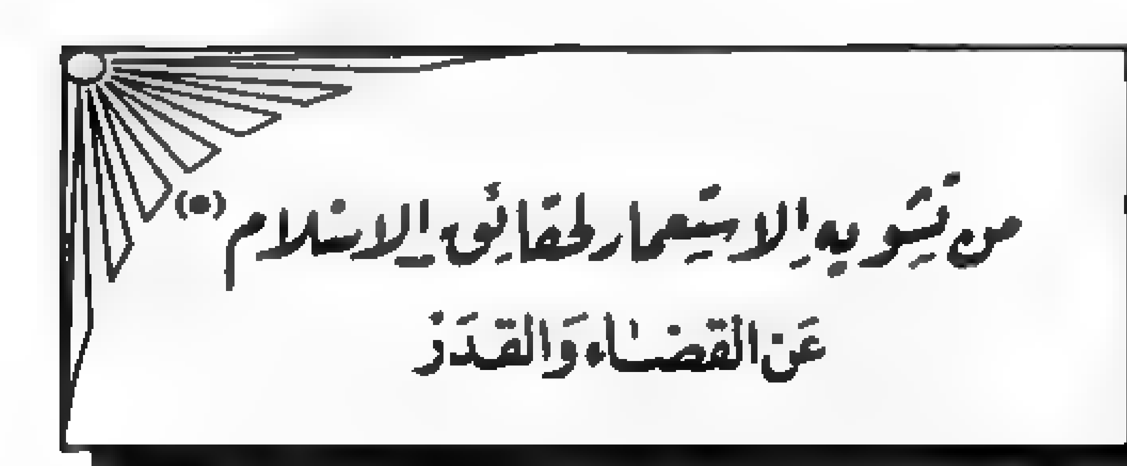
أليس في ذلك إفحام لهؤلاء الذين لا يخجلون من تزوير حقائق التاريخ فيصمون رسول الله بما أرادوا أن يصموه به، وكل وقائع حياته تكذبهم وتصفعهم على وجوههم وتجعلهم يكفون عن ترديد هذه الافتراءات لو كانوا يستحيون أو ينصفون، إن ميزة رسول الله ﷺ عن غيره من الأنبياء والعظماء أنه لم يتكلف الزهد تكلفاً ولا تظاهر به تظاهراً، بل كان أمراً طبيعياً.

ولقد جاء في سيرته أنه إذا جاء بيته فوجد فيه اللحم أكله، وإن وجد فيه الزيت أكله، وإن وجد فيه الخل أكله، وإن لم يجد شيئاً ظل جائماً ولا يشعر أصحابه بذلك وقد يمتد به الجوع يومين وثلاثة أيام حتى أنه ليربط على بطنه الحجر من شدة الجوع وأصحابه على غير علم بحاله، ولو علموا بأمره لملؤوا من أطايب الطعام والشراب، ولقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند بعض أهل الذمة لقاء نفقة أهله، فهل ترون الصحابة كانوا يرضون برهن درعه لقاء قوت عياله، لو كانوا بذلك المسالمين، وهل ترونه ﷺ كتم هذا الأمر عن صحابته

إلا لأنه كان مع صحابته رسولًا هادياً لا زعيماً متكبراً طماعاً في أموال أتباعه؟ وحاشاه من ذلك وهو الذي قال الله له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أيها الشباب والفتيات، أيها الرجال والنساء، أيها العلماء والطلاب، أيها الزعماء والمتنفذون أيها المؤمنون والمؤمنات: لتكن لكم في حياة رسولكم ﷺ كما ذكرنا طرفاً منها أسوة وعبرة، ولتكن الدنيا آخر ما تفكرون فيه ما دمتم تحملون لواء الإصلاح وتحكم الهداية، وليكن أحب شيء إلى نفوسنا جميعاً أن نقتدي برسول الله ﷺ في أسلوب حياته ومعيشته وجعل همنا الأكبر هداية الناس إلى الله وإرشادهم إلى طريق جنته ورضوانه، فهذا هو والله خير من الدنيا وما فيها، وهو الغنى الذي ليس بعده غنى، والشرف الذي ليس وراءه شرف، والعظمة التي تتضاءل دونها العظمات؟ فأي عظيم مثل محمد ﷺ؟ بل إني لأرى وصف الرسول بالعظمة لا الرسالة دون قدره الشريف، فالعظمة تراب يصعّد من الأرض غروراً، والنبوة كلام السماء إلى الأرض يملؤها هدياً ونوراً، اللهم ارزقنا الاقتداء برسولك واهتداء بهديه حتى نكون من السعداء الخالدين والحمد لله رب العالمين.

آمين :)



من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام (*) عن القضاء والقدر

إن تشويه أعداء الإسلام لتاريخ الإسلام وتاريخ عظمائه لا يقف ولا ينتهي، وقد ذكرت في الأحاديث الماضية أمثلة من تشويههم لسيرة رسولنا ﷺ وكشفت عن افترائهم وكذبهم في ذلك، وأنا أذكر اليوم مثلًا آخر طالما كرروه وأعادوه.

وهو أن سر انحطاط المسلمين كما يبدو اليوم ناشىء من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل ما يفعله العبد مقدر من الأزل لا سبيل لدفعه، ثم قالوا: ولذلك ترى المسلم كسولًا جاهلًا خاملًا، اعتقاداً منه بأنه لا فائدة من العمل ما دام كل شيء لقضاء الله وقدره، ومن المؤسف أن هذه الفرية وجدت سبيلها إلى أذهان

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العددان ٣ و٤ ـ السنة الثالثة ـ جمادى ١ و٢ ١٣٨٧هـ ـ آب وأيلول ١٩٦٧م.

بعض الكاتبين من المسلمين الذين يحاولون أن يبحثوا عن علل المجتمع الإسلامي وأسباب تأخره بعد قوته وازدهاره، ومن العجيب أن هؤلاء الكاتبين المتسبين إلى الإسلام لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث في هذه الدعوى التي قالها المستشرقون والغربيون ولو أنهم رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله لوجدوا رائحة الكذب والجهل تفوح من هذه الدعوى، وأن في هذه الحياة أشياء لا تدخل تحت اختيار الإنسان وإرادته، فبيئته، وأبواه وأرضه التي درج فيها، وأجواء السماء من مطر ورياح وعواصف وحر وبرد، وعمر الإنسان من طول وقصر، كل ذلك من الأمور التي لا يختلف عاملان في الشرق والغرب أنها من القضاء والقدر وأنه ليس للإنسان يد في دفعها.

وإذا أخرجناها من موضوع النزاع لم يبق عندنا إلا أعمال الإنسان الاختيارية فهي التي يحاسب عليها فيثاب إن أحسن ويعاقب إن أساء، على أن الشارع لا يرتب الثواب والعقاب إلا على وجود الإرادة الكاملة والعقل الكامل، فلا يعاقب مجنون ولا نائم ولا مكره عقوبة دينية عند الله، بل قد يعاقب في الدنيا عقوبة مالية إذا أتلف مال إنسان وكان عنده ما يدفع منه قيمة ما أتلفه، وهي ليست عقوبة للمجنون أو الصغير أو النائم الذي أتلف مال إنسان أو قتله بقدر ما هي حفظ لحقوق الناس وحرص على عدم إهدار أموالهم وأنفسهم، وأياً ما كان

فالثواب والعقاب في الدنيا والآخرة إنما هي على أعمال الإنسان التي أتاها بمحض إرادته واختياره، ولا دخل للقضاء والقدر في الثواب والعقاب وإلا لبطلت الشرائع وعطلت القوانين واستطاع كل إنسان أن يقول للمحكمة جواباً عن جريمته إني فعلت ذلك بقضاء الله وقدره، وليس في الإسلام ولا في الدنيا كلها محكمة تعفي الجاني من جنايته بحجة القضاء والقدر.

وأعمال الإنسان الاختيارية مطالب في الإسلام بإحسانها وفق أوامر الشريعة، فعلى المسلم أن يكتسب ويفعل الخير ويؤدي الواجب امتثالاً لأمر الله تعالى في كتابه أو إرشاد رسول الله ﷺ في سنته. وعليه أن يجتنب الشر ويبتعد عن الأذى ولا يهمل الواجبات ولا يفعل المنهيات امتثالاً لأحكام الشريعة واجتناباً لنواهيها، وبذلك يثاب إن أحسن العمل ويعاقب إن أساء.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

هذا هو موقف الإسلام من عمل الإنسان وسعيه،

ومن المقرر في الشريعة أن القادر على الكسب والعمل لا يجوز أن يعطى صدقة إذا سأل الناس فليس للقضاء والقدر دخل في كسل الإنسان وجهله كما يزعم بعض الكتاب الغربيين المتعصبين، ويتابعهم فيه بعض المنتمين إلى الإسلام من الكتاب والمؤلفين وقد نص القرآن على فوائد الاعتقاد بالقضاء والقدر مما يجعله ذا أثر اجتماعي عظيم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] ففي هاتين ما يشير بصراحة إلى بعض فوائد الإيمان بالقضاء والقدر من الوجهة الاجتماعية، وهي أن لا يحزن على أمر مرغوب قد فاته، وفي الحزن بلا شك تثبيط عن العمل، وسبيل إلى التشاؤم، وأن لا يفرح الإنسان بما أعطاه الله من مال أو علم أو فضل أو جاه أو غير ذلك، والمراد بذلك ذم البطر والكبر والغرور والاستعلاء على الناس، وذلك بلاء اجتماعي يفسد القلوب، ويدعو إلى الحسد والعداوة والبغضاء.

ويقول الله في آيات أخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ويقول

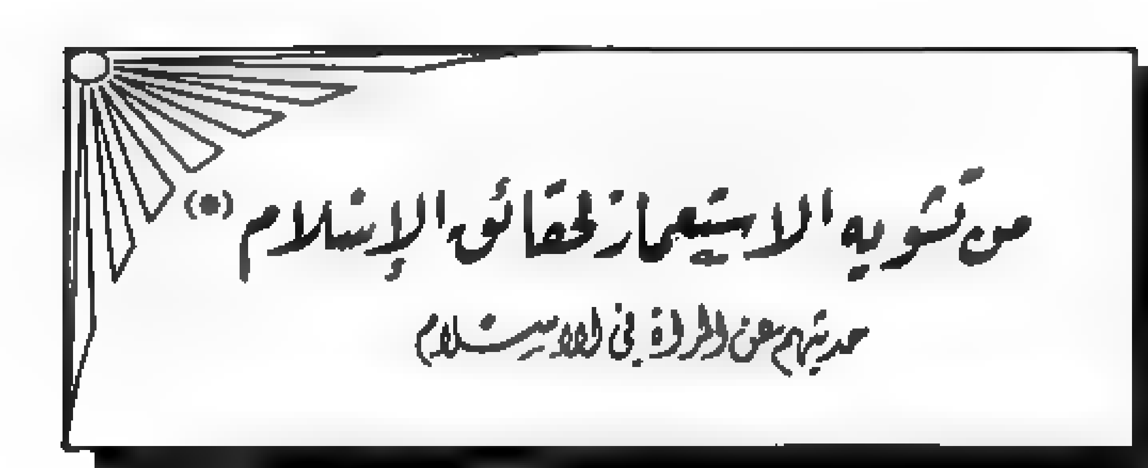
على لسان المجاهدين لأعداء الله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] يعني النصر أو الشهادة، ويقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ففي مثل هذه الآيات وغيرها رفع للروح المعنوية لدى المجاهدين المؤمنين، وتشجيع على خوض المعارك مع أعداء الله دون أن يخافوا الموت، فالموت مقدر لا بد منه وهو في ميدان المعركة شرف وشهادة فلماذا يحجم عنه المؤمن المجاهد؟

وإن ما نقرؤه في تاريخ صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من آيات البطولات، ومعجزات الشجاعة، حتى كانوا ينتصرون مع قلة عددهم وعدتهم على أضعاف أضعافهم عدداً وأمضى منهم سلاحاً، وليس لذلك سبب إلا عقيدة الإيمان بأن الموت حق لا بد منه وأن لكل إنسان أجلًا معيناً، فإن جاء أجله وهو في المعركة مات شهيداً وإلا فلن تضره سيوف الأعداء وسهامهم، وبهذه الروح العالية المؤمنة كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يخوض المعركة حتى يصل إلى قلب صفوف الأعداء مما كان يذهلهم ويرعبهم من هذه الجرأة العجيبة، وبهذه العقيدة ذاتها قال لأهل الحيرة حين طال اعتصامهم بحصونهم: والله لو صعدتم إلى السماء لأصعدنا الله إليكم، فكم يكون وقع هذا الكلام في

نفوس أعدائه؟ وكلنا يعلم قوله وهو في النزع: لقد خضت أكثر من سبعين معركة، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه أثر من طعنة رمح أو ضربة سيف، ثم أموت على فراشي كما يموت البعير فلا قرت أعين الجبناء.

يا أبناء الإسلام إن البطولات الخارقة التي سجلها آباؤنا في فتوحاتهم وانتصاراتهم المذهلة ليس له سبب إلا أنهم فهموا القضاء على حقيقته، لا كما يفهمه الجاهلون اليوم. لقد فهموا القضاء والقدر على أنه لا يقدم أجلًا ولا يؤخر رزقاً، فجاهدوا في الله حق جهاده، وقالوا كلمة الحق حين يجب أن تقال. وبذلك ربى الإسلام أجيالًا تباهي الدنيا ببطولاتهم وجرأتهم جهراً بالحق وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ودأباً على العلم. وسعياً وراءه مما لا تجدون عشر معشارهم في أمة من أمم الأرض فمن أجهل ممن يزعم أن عقيدة المسلمين بالقضاء والقدر سر تأخرهم وكسلهم وانحطاطهم؟.

يا شباب الإسلام ويا فتياته: افهموا القضاء والقدر عملًا لا كسلًا، وحافزاً لا مثبطاً، وقوة لا ضعفاً، وسعياً لا خمولًا، أفهموه على أنه مبعث القوة في حياتكم الجديدة تكونوا من الأقوياء الناجحين.



إنه لأمر تتركز عليه جهود علمائهم المنحرفين ولاهوتييهم المتعصبين. وصحافييهم المأجورين، وكتابهم وأدبائهم المتاجرين بالأدب ليكتبوا للجمهور عندهم كل غريب وكل طريف عند الأمم الأخرى وبخاصة المسلمين.

إنك إذا قدر لك أن تزور أوروبا كان أول حديث بينك وبين أي أوروبي حين يعرف أنك مسلم «حول موقف الإسلام من المرأة» وإهانته لها، وانتقاصه لحقوقها، فهم يزعمون أن المرأة مهينة القدر في الإسلام مهيضة الحقوق، حتى لقد كتب كاتبون منهم، وتحدث متحدثون كما روى لي ذلك شاب مسلم سمع ذلك بأذنه حين لقيته في أوروبا في صيف إحدى الأعوام أن الإسلام

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخامس ـ السنة الثامنة ـ رجب ١٣٨٧هـ ـ تشرين الأول ١٩٦٧م.

يحظر على المرأة دخول الجنة، وأن ليس لها فيها مكان تستريح فيه أو تنفذ إليه، والمسلم الحق العالم بدينه وأحكام شريعته قد تهوله هذه الفرية الظالمة على الإسلام ويظنها وليدة الجهل منهم بالإسلام فحسب، مع أنهم لم يعودوا معذورين في هذا الجهل المعيب بعد أن تعددت تراجم القرآن الكريم إلى مختلف لغاتهم وكتبت عشرات الكتب عن الإسلام وتعاليمه، والحق أن الجمهور الغربي ضحية التغرير المتعمد المقصود في هذه القضية وغيرها من قضايا الإسلام، وتلعب الصليبية الحديثة والصهيونية الحاقدة دورهما الخطير في هذا التغرير، فليس من مصلحة هاتين الفئتين الخطيرتين أن تعرف الشعوب الغربية حقيقة الإسلام على صفائها وجمالها، لئلا تنصرف بقلوبها وعقولها إلى الإسلام وهي تبحث عن الحق بما يرضي عقولها وضمائرها، حتى أصبح فيها وثنيون بوذيون ولهم معبد بوذي يؤمه الألمان البوذيون في مدينة فرنكفورت التي كانت ولا تزال تعتبر العاصمة الثانية لألمانيا الغربية بعد برلين. لهذا وغيره تتعمد الصليبية الحديثة والصهيونية الحاقدة تشويه كثير من قضايا الإسلام أمام أنظار الغربيين، وإنني سأحاول أن أوجز لكم ما جاء به الإسلام من إصلاح لقضية المرأة يوم كانت المرأة متاعاً حقيراً في نظر الشعوب عند بعثة الرسول ﷺ.

لقد كانت اليهودية تعتبرها سبب شقاء آدم وطرده من الجنة وبسببها حلت اللعنة عليها وعلى بنات جنسها إلى يوم الدين، وأخذ رجال المسيحية الأوائل في القرن الأول الميلادي ممن كانوا وثنيين أو يهوداً قبل أن يتنصروا أخذوا هذه النظرة اليهودية عن المرأة فأدخلوها في النصرانية وتدل أقوال قديسيهم في تلك الفترة عن المرأة ولعنهم لها وأنها باب الشر والإثم على حقيقة نظرة النصرانية في عصورها الأولى إلى المرأة ومكانتها، وقد جاء في تعاليم بعض رؤسائهم في تلك الفترة أنها يجب أن تسكت حين دخولها الكنيسة، ويجب أن يُكم فمها كالكلب العقور، بهذا التعبير تماماً، ولم يكن للمرأة حق الميراث في الشريعة اليهودية إلا إذا لم يكن لها أخ ذكر، وطبعاً لم تتعرض النصرانية لهذا الموضوع لأنها جاءت لتهذيب أخلاق اليهود التي ضلت وانحرفت، ولذلك يعتبر التشريع اليهودي تشريعاً واجب العمل به عند النصارى إلا ما نسخه المسيح أو رجال الكنيسة من بعده، أما الشعوب الأخرى والديانات الوثنية فلم تكن أحسن ظناً بالمرأة، فعند البراهمة البوذيين لا يمكن للرجل أن يدخل ملكوت السماوات أي الجنة إلا إذا ابتعد عن الحياة الجنسية ابتعاداً تاماً، ولقد كانت حياة المرأة عندهم مرتبطة بزوجها الذي لم يشأ أن يحيا حياة الكمال فتزوج، لقد كانت حياتها مرتبطة بحياته، فكان عليها إذا مات أن تحرق نفسها بجوار جثته وإلا كانت

خائنة غدارة، وظلت هذه العادة عند الهنود البراهمة مستمرة حتى أبطلها المستعمرون الإنجليز بالقوة في أواخر القرن السادس عشر، ولم يكن الغربيون المسيحيون في القرون الوسطى أحسن من هؤلاء جميعاً فقد عقدوا في القرن السادس مؤتمراً كبيراً في إحدى مدن فرنسا للنظر في المرأة ما هي؟ أحيوان ذات روح أم لا؟ أهي شيطان أم إنسان شرير؟

وأخيراً انتهوا إلى أنها حيوان ذات روح وخلقت لخدمة الرجل فقط، ومن عجائب القدر ومفاخر تاريخنا أنه بينما كان الفرنسيون يشكون في إنسانية المرأة ويعقدون المؤتمرات لذلك، ارتفع صوت الصحراء في جزيرة العرب في مكان ناء عن الحضارة ومعاهدها وفلسفاتها، من إنسان أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا دخل مدرسة ولا جلس بين يدي أستاذ، إنه صوت محمد رسول الله ﷺ يعلن من مكة أم القرى أن النساء شقائق الرجال، ويتلو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] ويعلن من يثرب شقيقة مكة وجارتها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. ثم بينما كانت اليهودية والنصرانية تلعنان المرأة لأن أمها حواء كانت سبباً في إخراج آدم وذريته من الجنة،

كان القرآن يعلن أن المسؤولية في ذلك على آدم وحواء معاً لا على حواء وحدها فيقول: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦] فلم يجعل الخطيئة والمخالفة من حواء وحدها بل منها ومن آدم، ولم يعاقبها بالفتنة التي تنتقل منها جيلاً بعد جيل إلى بناتها فحسب بل تاب الله عليها وعلى آدم، وفي بعض آيات القرآن ما ينسب هذه الزلة إلى آدم وحده مع تصريحه بأنهما معاً أكلا من الشجرة، قال الله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

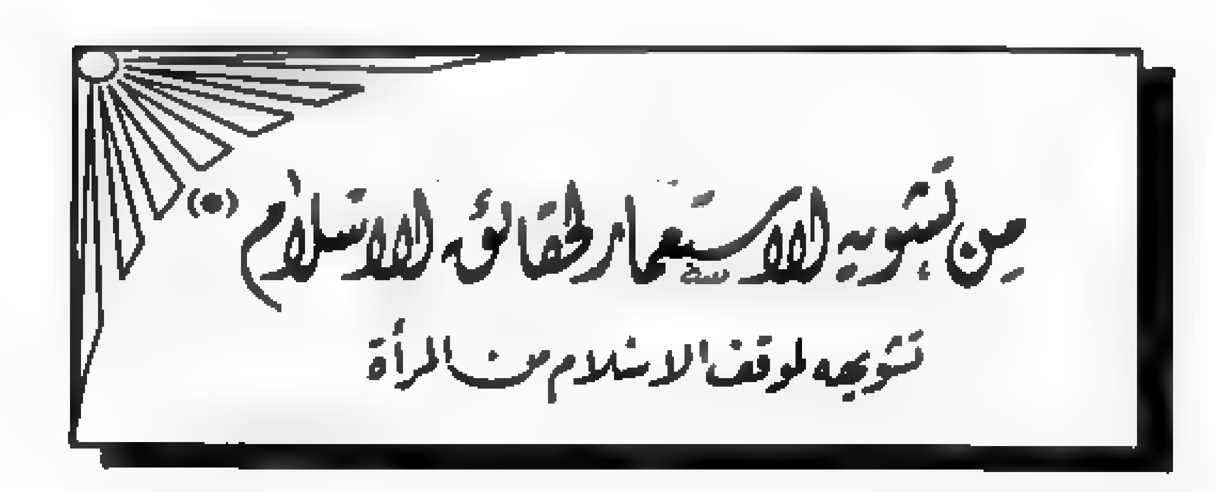
فانظر إلى الفرق الشاسع بين موقف القرآن من حواء في هذه القصة وبين موقف اليهودية والنصرانية فيها، لترى أي دين من هذه الديانات كان أكرم للمرأة وأبر بها وأحرص على اعتبار شأنها، ثم إن الإسلام لم يجعل الزواج دنساً كما تنادي البرهمية، ولا أمراً غير لائق بالتقوى كما فعلت النصرانية، بل جعله سنة من سننه رغب فيه وحث عليه، ونعمة من نعم الله على الإنسان كنعمته عليه في الماء والهواء والسمع والبصر

والحياة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] ولم يجعل الإسلام الرجل وحده مكلفاً بالعبادة وهو وحده الذي يستأثر بالجنة، بل طالب بها كلاً من الرجل والمرأة وجعل الجنة لمن أحسن العمل ذكراً كان أم أنثى.

استمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧] ويقول: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠] فكيف يفتري أعداء الله على الإسلام بأن المرأة لا تدخل فيه الجنة مع هذه الآيات الصريحات الواضحات، ولقد كنت أعجب وأنا في أول طلبي للعلم من توضيح الأمر بالذكر والأنثى وكنت أقول أن قوله تعالى من عمل صالحاً يشمل الذكر والأنثى بحسب قواعد اللغة فما السر في توضيح ذلك بقوله من ذكر أو أنثى، وكنت حين أقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥] كنت حين أقرأ هذه الآية أعجب من التأكيد على الذكر والأنثى في كل المتصفين بهذه الصفات وأقول في نفسي ألا يكفي أن يكون اللفظ عاماً يشمل الذكر والأنثى، حتى قرأت عن المؤتمرات التي كانت تعقد في أوروبا حول المرأة وطبيعتها وحلول اللعنة عليها، وما كان محمد ﷺ وهو الذي تتنزل عليه هذه الآيات في مكة والمدينة يعلم من أمر هذه المؤتمرات شيئاً ازددت إيماناً بأن هذا القرآن وحي من عند الله وكان هذا الأسلوب في تكرار الذكر والأنثى رد على أولئك المؤتمرين في الغرب، وإفحام لمن سيفتري على دين الله بأنه لا يرى المرأة أهلاً لدخول الجنة، فسبحان الله منزل القرآن والذكر الحكيم ومرسل محمد ﷺ رحمة للعالمين.

يا فتاة الإسلام وبخاصة يا فتيات العرب المسلمات وبالأخص يا فتيات مكة والمدينة المؤمنات إذا جاز لفتاة أن تتحدث عن تحرير المرأة في العصور المظلمة فارفعن رؤوسكن تيهاً وإعجاباً بأنه من بلادكن النائية من جبالكن الجرداء من رمالكن اللاهبة ارتفع أول صوت في الدنيا يعلن كرامة المرأة ويحررها وقام أول مصلح بتحطيم قيود المرأة وأغلالها.



من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام (*)

تشويهه لموقف الإسلام من المرأة

تحدثت فيما مضى عن الإصلاح العظيم الذي جاء به الإسلام في قضية المرأة فأعلن إنسانيتها في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعقد المؤتمرات لتتأكد من أنها إنسانة أم لا، وأعلن حقها في العلم والعبادة وإمكان دخولها الجنة إن أحسنت. يوم كانت الديانات تلصق بها اللعنة لأن أمها حواء أغوت آدم فأخرجته من الجنة.

وأزيد أن الإسلام قبل أربعة عشر قرناً قرر أهليتها المالية الكاملة، فهي في حق التملك والتصرف في أموالها كالرجل سواء بسواء متى كانت بالغة سن الرشد، وهذا الحق الذي قرره الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً كانت أرقى شعوب الأرض تنكره عليها: فكان القانون الروماني

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السادس ـ السنة الثامنة ـ شعبان ١٣٨٧هـ ـ كانون الأول ١٩٦٧م.

يجعل أسباب الحجر على الإنسان في تصرفاته وخضوعه والوصاية عليه ثلاثة: الصغر والجنون والأنوثة. واستمر ذلك حتى قانون نابليون في الثورة الفرنسية فقد نص فيه على أن الذين لا تصح تصرفاتهم ثلاثة: الصبي والمجنون والمرأة، وكانت المرأة المتزوجة لا تملك حق التصرف بأموالها الخاصة إلا بإذن زوجها وموافقته، واستمر هذا النص قائماً حتى عدل في عام ١٩٣٩ حيث أعطيت المتزوجة قدراً من حرية التصرف بأموالها دون الحاجة إلى موافقة زوجها، ولكن بقي عليها مع ذلك قيود حتى قال وزير العدل الفرنسي الذي قدم مشروع التعديل بشكل أوسع ـ ولكن الجمعية الوطنية الفرنسية يومئذ أبت إلا أن تبقي بعض القيود على تصرفات الزوجة في أموالها ـ قال هذا الوزير الفرنسي: إن حلم المرأة الفرنسية في الحرية لم يتحقق تماماً كما تريد، ولا يزال الأمر كذلك في القانون الفرنسي وهو الذي يعتبر أب القوانين الأوروبية كلها، فانظروا كيف سبق الإسلام العالم كله إلى تقرير الأهلية المالية ومساواتها بالرجل بأربعة عشر قرناً، ولم يزل العالم مقصراً دون الإسلام في تقرير هذه الأهلية الكاملة.

إن الإسلام كما رأيتم كان أسبق الشرائع والديانات إلى احترام إنسانية المرأة وكرامتها والتسليم بأهليتها المدنية الكاملة في تملك الأموال والتصرف فيها، ولا

يناقض هذه الحقيقة أن الإسلام خص الرجل ببعض الحقوق لا لشيء يتعلق بامتهان المرأة وانتقاصها، بل لوظيفتها الاجتماعية وتكوينها الجسمي والنفسي.

فرئاسة الدولة العليا كالخلافة مثلًا هي من شأن الرجل وحده لأن رئيس الدولة في الإسلام بيده مقاليد الحكم مع أعوانه ومستشاريه فهو الذي يعلن الحرب على الأعداء مثلًا أو يعقد معهم معاهدات الصلح بعد استشارة أهل الحل والعقد، ولا شك في أن إعلان الحرب يعني تعبئة الأمة كلها للقتال، فالرجال للمعارك، والنساء لأعمال الإسعاف، وقد يشتركن في القتال إذا لم يكف الرجال أو انهزم المقاتلون أول الأمر كما حصل في حياة رسول الله ﷺ في معركتي أحد وحنين، والحرب ـ وإن كان لا يعلنه الإسلام إلا للمصلحة العامة دفاعاً عن الإنسان في كرامته وحريته وحقه في الحياة وذلك بنشر دعوة الإسلام ودفاع عن هذه الدعوة والأمة ـ فإن فيه من المصائب والويلات ما يجعل المرأة بطبيعة فطرتها الرقيقة التي رحم الله الأسرة والمجتمع بها، أصعب شيء عليها رؤية الدماء واحتدام المعارك، وقضايا الأمة لا ينظر إليها بالعاطفة دائماً، فكيف تعطي حق إعلان الحرب وهي التي لا تستطيع رؤية الدماء وقد يكون في المقاتلين أولادها أو أخوتها أو زوجها أم كيف تعطي حق إعلان الصلح وهي رقيقة العاطفة تميل إلى الهدوء والسلام؟

لمثل هذا المعنى الاجتماعي حظر الإسلام رئاسة الدولة وما كان في معناها بالرجل دون المرأة، ولمثل ذلك جعل نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل فذلك منسجم مع نظام الإسلام في النفقات من أن نفقة البنت على أبيها حتى تتزوج فإذا تزوجت كانت نفقتها على زوجها، فإذا مات زوجها ولا مال له مثلًا أو طلقها عادت نفقتها على أبيها إن كان حياً موسراً وإلا فعلى أقرب الناس إليها وفق نظام معروف في الفقه الإسلامي، ثم إذا تزوجت المرأة تأخذ مهراً هو حقها خالصاً، بينما الرجل في الزواج هو الذي يدفع المهر وهو الذي ينفق على بنيه وزوجته وعلى أولادها.

فهذه الواجبات التي ألقاها الإسلام على الرجل لمصلحة الأسرة والمجتمع قد أعفى منها المرأة إعفاء تاماً فكيف يسوي بينهما في الميراث، والواجبات المالية متفاوتة بينهما كما رأينا. ولنضرب مثلًا باب من مات عن ابن وبنت كل منهما في سن الزواج، فماذا يحتاج الابن ليتزوج؟ وماذا تحتاج البنت؟ إن الابن يحتاج لدفع المهر وتأثيث البيت والإنفاق على الزوجة والأولاد، بينما أخته هي التي تأخذ المهر حين زواجها، وعلى زوجها تأثيث البيت والإنفاق عليها وعلى أولادها، ففي نظام الإسلام، الرجل يدفع دائماً، والمرأة تأخذ دائماً ـ وهذا طبعاً

لمصلحة الأسرة وتماسكها ـ أفلا يكون إعطاء الإسلام للبنت نصف ما يأخذ أخوها من تركة أبيهما عدلًا بل فيه قدر كبير من التسامح لمصلحة المرأة، لقد ألقيت هذا السؤال مرة على طلابي وطالباتي في جامعة دمشق فلم يسع الطالبات إلا أن يعترفن بأن هذا هو العدل، وأما الطلاب فقد قالوا: لقد حابى الإسلام المرأة على حساب الرجل، ولم يشك بعد هذا أحد من الطلاب والطالبات بأن إعطاء المرأة نصف ما يأخذ الرجل من الميراث عدل لا إجحاف بالمرأة ولا انتقاص لها، إن شرائع أوروبا التي تعطي المرأة في الميراث مثل الرجل قد ألقت عليها من الأعباء المالية أكثر مما ألقت على الرجل أو مثله، فالمرأة عندهم هي التي تدفع للرجل مالًا عند الزواج بها ويسمى عندهم بالدوطة وهي مكلفة بالاشتراك في نفقات الأسرة كما يكلف زوجها، فعليها أن تعمل كما يعمل لإعالة الأسرة فمن حقها إذاً أن تأخذ مثل نصيبه في الميراث، ولكن هذا النظام فيه من القسوة على المرأة بتكليفها العمل خارج البيت مع تكليفها القيام بشؤون البيت وتربية الأولاد، ما فيه من الشقاء لها والإضرار بالأسرة ما يؤدي إلى تفككها وانهيارها، وهذا هو الواقع اليوم في أوروبا فالأسرة متفككة، والروابط العاطفية بين أعضائها ضعيفة أو معدومة كما شاهدت ذلك بنفسي وذكرت في كتابي المرأة بين الفقه والقانون ما يؤيده من أقوال الغربيين في

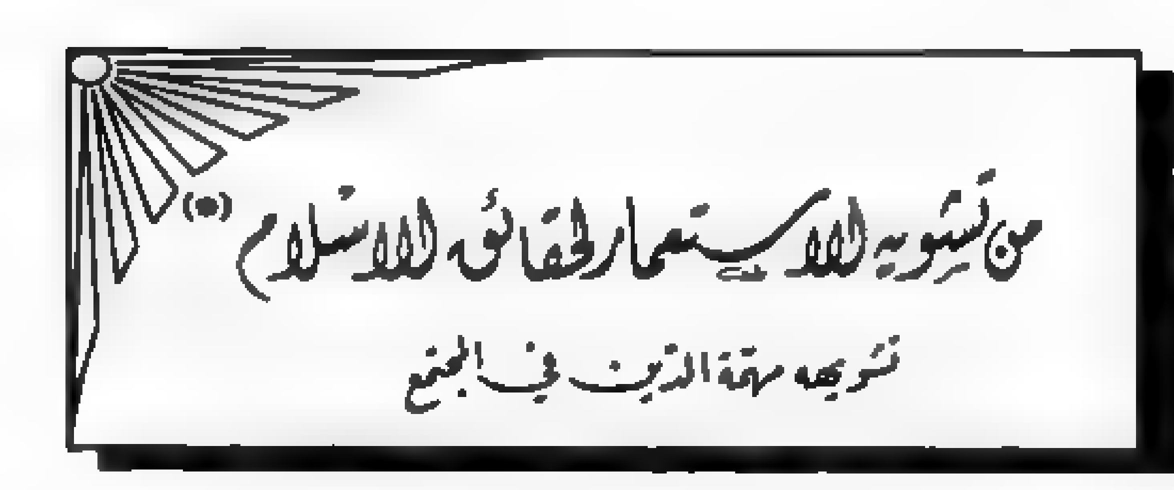
كتبهم وصحفهم، ولقد كنت أتناقش مرة مع طالبة إيطالية في كلية الحقوق بجامعة كمبردج عام ١٩٥٦ حول وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الحضارة الغربية، فلم يسعها إلا أن تعترف أمام عدد من الشباب بأن الإسلام أرحم بالمرأة وأعدل وأحفظ لكرامتها، وكنت في بعض مستشفيات ألمانيا فتناقشت مع ممرضة حول هذا الموضوع كانت تشكو تعبها وأعباءها من العمل، ثم تعبها في تنظيف البيت وتهيئة شؤونه بعد العودة من العمل وزوجها موظف ليلي في إحدى محطات السكك الحديدية، وذكرت لي كيف لا تلتقي معه إلا يوم الأحد من كل أسبوع إذ هي ما تكاد تفرغ من شؤون البيت حتى تأوي إلى فراشها منهكة القوى، ويأتي زوجها كذلك منهك القوى فينام فوراً، وفي الصباح يخرج كل منهما إلى عمله وهكذا، فلما ذكرت لها نظام الأسرة في الإسلام وكيف يكلف الزوج وحده بالإنفاق على زوجته وأسرته قالت لي هذه العبارة تماماً: إنني أتمنى أن أكون مسلمة وأن أعيش في بلاد الإسلام!.

أيها الأخوات المؤمنات إليكن أوجه الحديث وبخاصة إلى المثقفات منكن: احذرن كل الحذر هذه الدعوات الكاذبة الخادعة إلى التمرد على نظام الإسلام فيما يتعلق بكن، واحذرن ما يقال لكن عن إكرام المرأة

في أوروبا وسعادتها واحترامها، لقد زرت أوروبا نحواً من خمس مرات وطفت في أكثر بلدانها، وزرت دولها فوالله ما رأيت أشقى من المرأة في حياتها لئن كان في أوروبا عشرات من النائبات في المجالس النيابية، لا يقدمن ولا يؤخرن شيئاً في السياسة العامة، فإن فيها عشرات الملايين يكنسن الشوارع وينظفن المراحيض العامة، ويمسحن الأحذية، ويخدمن في المقاهي والمطاعم، ولقد رأيت بنفسي حين زرت مع وفد جامعة دمشق تلك البلاد تلبية من جامعتها رأيت كيف يشتغل النساء ـ دون الرجال ـ بتنظيف الشوارع وغسلها بعد منتصف الليل، وكيف تجلس العجائز حارسات حتى الصباح على أبواب العمارات الكبيرة التي تسكنها العائلات، ورأيت في شوارع باريس العجائز يبعن الصحف في الليل، رأيت في سويسرا كيف يخدمن الرجال في المراحيض العامة ليأكلن لقمتهن وقد يكون أولادهن من أحسن الناس حالاً. إن البنت في أوروبا متى بلغت سن الثامنة عشرة كان عليها أن تعول نفسها، وعليها أن تفتش عن العمل في أي مكان دون أن يهتم لذلك أبواها. وتظل تشقى وتكابد وتعاشر هذا وذاك من زملائها في العمل حتى تجد من يقتنع بزواجه منها ثم إذا صارت أماً عجوزاً لا يكلف ابنها بأي شيء نحوها.

فأنا أسألكن يا أخواتي أهذه حياة كريمة؟ أهذا هو إكرام المرأة إن ما ترونه من حضورها المجالس والسهرات والمراقص ليس إلا ابتذالاً لها ورغبة منها في تخفيف بعض همومها وآلامها، وما يتظاهر به الرجل من تقبيل يدها فليس إلا مظهراً من مظاهر النفاق الأخلاقي الذي عرف به الغربيون.

إن الإسلام أكرم المرأة قبل أربعة عشر قرناً أعطاها حقها، مختاراً غير مكره، والحضارة الغربية لم تعطها بعض حقها إلا بعد إضراب ومظاهرات. ثم لم تصل بعد هذا إلى بعض حقها إلا بعد ابتذالها. واستغلال أنوثتها. فيا أخواتي، يا بناتي، اعرفن فضل الإسلام عليكن، ولا يلتبس عليكن الأمر بين إكرام المرأة وبين ابتذالها، فإن الذين لا يفرقون بين الكرامة والابتذال هم الغارقون في الأوهام والأوحال، أقول هذا نصيحة لله ولرسوله ولأمتنا ولكنّ خاصة، والدين النصيحة.



من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام (*)

تشويهه مهمة الدين في المجتمع

إن من أعظم دسائس الاستعمار الفكرية التي أراد بها تهديم مجتمعنا الإسلامي ما ألقاه في أذهان كثير من شبابنا الذين تعلموا في ديار الغرب، وما روجه مستشرقوهم اللاهوتيون وكتابهم الاستعماريون أن من أكبر أسباب انحطاط المسلمين اليوم وتخلفهم عن ركب الحضارة، إنما هو تمسكهم بدينهم، وهم يزعمون بأن الدين عموماً والإسلام خاصة لا يتفق مع العلم ولا يؤدي إلى التقدم والتطور بل يقف حجر عثرة في سبيل ذلك كله.

وقد تجاهل هؤلاء الدساسون وغاب عن أذهان تلاميذهم المغفلين من أبناء أمتنا، ذلك الفرق الشاسع بين

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السابع ـ السنة الثامنة ـ رمضان ١٣٨٧هـ ـ كانون الأول ١٩٦٧م.

دينهم ودينتا وأنه إذا كان دينهم أو رجال دينهم وقد حاولوا عرقلة النهضة وقاوموها في بلادهم فإن ديننا وعلماءنا المصلحين الواعين هم الذين أقاموا صرح حضارتنا الإنسانية الزاهرة، وهم الذين أنهضوا العالم من كبوته بعد أن كان يغط في سبات عميق. وإنا لنعلم جميعاً أن كل نهضة حضارية لا تقوم إلا على أساس عقيدة صحيحة حضارية، وعلم ثابت يكتشف نواميس الكون وأسرار الحياة، وخلق قويم يتحمل أعباء النهضة وتضحياتها وتكاليفها: هذه هي العناصر الثلاثة الأساسية في بناء كل نهضة وحضارة، ونحن لا نريد أن نناقش غير ديننا لنرى إن كان قد جاء بهذه العناصر الثلاثة أم لا، ولكننا سنناقش الأمر في ديننا الإسلام مناقشة علمية بعيدة عن العاطفة والهوى، لنرى إن كان ديننا قد تكفل بالأسس الثلاثة الضرورية للنهضة أم لا؟

أما العقيدة الصحيحة الحضارية التي تبعث الحياة في المجتمعات فليس أصفى ولا أنقى من عقيدة الإسلام في الألوهية والنبوة وغيرها، فالله في الإسلام إله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة ولا ولد، وهو حي عليم قادر سميع بصير يعلم وهو ليس جسماً يحده زمان أو مكان، ولا خلقاً من هذه المخلوقات، فليس شجراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمراً ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ

ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧] والله في عقيدة الإسلام حكيم عادل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون فهو لا يدخل الجنة من لا يستحقها، ولا يدخل النار من لا يستحقها، بل هو لا يعطي إلا لمن يستحق ويعمل مؤمناً كان أو كافراً ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠] وهكذا تجد المسلم لا يخضع إلا لإله واحد هو خالق كل شيء ومنه مصدر كل شيء، وهو لا يحابي أحداً ولا يظلم أحداً، ومقياس القرب منه والبعد عنه العمل الصالح والعمل السيىء، فمن أحسن عمله واتقى ربه، وكفى الناس شره، ومنح الناس خيره كان هو المقرب إلى الله، ومن أساء وظلم وفسق وفجر، وأشاع الفساد، ومنع الخير كان هو المبعد عن الله وفي هذا المعنى جاء الخبر عن النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله

وأقربهم إليه أنفعهم لعياله». ومنه جاء قول الرسول تلك المقالة الخالدة التي تعتبر أساساً من أسس العقيدة الإسلامية: **«يا فاطمة بنت محمد اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً»** وهذه العقيدة كما ترى صحيحة ملائمة للفطرة، منسجمة مع العقل، باعثة على الحياة، منشئة للحضارة.

وأما الأساس الثاني من أسس النهضات وهو العلم فليس في الأديان دين حث على العلم ورغب فيه ولفت نظر الإنسان إلى ظواهر الكون والطبيعة، وطلب إليه أن يكتشف نواميسها ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠] أي مهدت ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [النمل: ٦٩] وأعجب من ذلك في الإسلام تنبيهه إلى أن كل ما في الكون من بحار وأنهار وشموس وأقمار مسخر للإنسان، وإذا علمت أن مثل هذه الآيات بلغت سدس آيات القرآن أي أكثر من ألف آية. بينما لم يرد في الصلاة إلا ما يقرب من سبعين آية، وفي الصيام إلا آيات، وفي الزكاة إلا آيات، وفي الحج إلا آيات وهذه هي أركان الإسلام بعد الشهادتين، أدركت أي

دين عظيم هذا الإسلام الذي وضع العلم هذا الموضع، وفتح العقول ونبه إلى أسرار الكائنات ودعا إلى اكتشاف نواميسها، وأدركت أي دين عظيم هذا الإسلام الذي جعل المؤمنين به بعد انسياحهم في آفاق الأرض يبشرون برسالته هم أعظم أمة تحمل لواء العلم في العصر الوسيط، حتى كانت مساجدها مدارس، ومدارسها جامعات يفد إليها طلاب المعرفة والثقافة من شتى أنحاء العالم. وكان المسجد عندنا إما مدرسة أو بجانبه مدرسة يأوي إليها طلاب العلم، ولقد بلغ من انتشار العلم والثقافة في ازدهار حضارتنا أن كانت قرطبة من أكبر مدن الدنيا يومئذ تضم ما يزيد على مليوني نسمة ليس فيها أمي واحد باعتراف مؤرخي الغرب وكتابهم المنصفين، وإن كان بائع البطيخ والخضار يتناقش مع جاره في أيهما أشعر: المتنبي أم البحتري كما يروي ذلك الخطيب البغدادي في تاريخه. ويروي ابن بطوطة في رحلته أنه كان في الصالحية إحدى نواحي دمشق وحدها ما يقرب من أربعمائة مدرسة، بحيث لو نام الطالب الغريب في كل مدرسة ليلة لأمضى سنة دون أن يعود إلى المدرسة التي نام فيها ليلته الأولى. هذا هو موقف الإسلام من العلم، وتلك هي بعض أخبار معاهده ومدارسه في حضارته الزاهرة.

أما الأساس الثالث من أسس النهضات والحضارات وهو الأخلاق القوية المستقيمة التي تدأب وتكافح وتصبر على عناء النهضات وتقدم التضحيات في سبيلها، فليرجع من أراد ذلك إلى مراجعه من كتب الدين والأخلاق في الإسلام، وحسبك أن تعلم أن الذين قاموا بالفتوحات في صدرالإسلام كانوا يأخذون معهم نساءهم وأطفالهم يشاركون معهم في الجهاد في سبيل الله، ولقد خاضوا أقسى المعارك وأشدها ضراوة مع دولتي العالم الكبيرتين يومئذ فانتصروا عليهما مع الفارق الكبير بينهما في العدد والعُدد، وما كان لهذا الانتصار من سبب إلا العقيدة والأخلاق، فلما استقر بهم الملك وقامت لهما الحضارة رأينا من أخلاقهم ما يكاد يكون من الأساطير لولا صحة الأخبار التي جاءت بها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتكافل المجتمع في السراء والضراء، وقيام المؤسسات الاجتماعية التي نسميها بالأوقاف، حتى كان منها ما لم يخطر في بال أهل الحضارة اليوم، فمنها ما كان لبناء بيوت خاصة بالفقراء ومنها السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات ليشرب منها الناس جميعاً، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يوزع فيها الطعام من خبز ولحم وحساء وحلوى، ومنها بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى حج بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها مما حمل بعض

الفقهاء على القول ببطلان إجارة بيوت مكة في موسم الحج، ومن هذه الأوقاف حفر الآبار في الفلوات، ومنها أوقاف للجهاد في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، ومنها ما كان وقفاً لإصلاح الطرقات والجسور، ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء ودفنهم، ومنها ما كان لإمداد الفلاحين الفقراء بالبذور واللازم لها في مواسم الزرع، ومنها لتزويج الشباب والفتيات الفقراء، ومنها لإعطاء الأمهات المرضعات الحليب والسكر لأطفالهن الرضع، حتى إن صلاح الدين رحمه الله جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب وآخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر تأتي الأمهات يومين ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

أيها الأخوة المؤمنون والأخوات المؤمنات: إذا كان هذا هو الإسلام في تضمنه العناصر الرئيسية الثلاثة لكل نهضة، أفليس من التضليل أن يقال إن الدين أي الإسلام ضد النهضة وضد العلم وضد التقدم؟ أليس من التضليل أن يقاس الإسلام على النصرانية في ذلك؟ إذا كان الدين في أوروبا قد حاول إيقاف النهضة وحارب العلم والعلماء، فإن الإسلام على عكس ذلك كله هو الذي أقام الحضارة وكان علماؤه الواعون الصادقون هم دعائمها

وأركانها. لا تستمعوا يا شباب الإسلام ويا فتياته إلى ما يقال لكم عن تأخير الدين للنهضة فذلك شأن دينهم لا دينكم، ومن نادى ذلك من مثقفي أمتنا فهم مقلدون إما حمقى وإما عملاء. إن في دينكم القوة. إن في دينكم التقدم، إن في دينكم الحياة. والذين يصدونكم عنه لا يريدون قوتكم ولا تقدمكم ولا حياتكم فاحذروا هذه المكيدة الخطيرة إن أردتم لأمتكم القوة ولبلادكم السيادة ولشعبكم السعادة.

من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام (*)

تشكيكه في السنة النبوية ورواتها

لما يئس أعداء الإسلام من الدس على كتاب الله والتشكيك فيه، لأنه الكتاب الديني الوحيد في العالم من بين الكتب المقدسة لدى جميع الديانات قد نقل نقلًا متواتراً نقلته الملايين في كل جيل عن الملايين في كل جيل عن رسول الله ﷺ.

وهو يتلوه على صحابته كتاباً منزلًا من رب العالمين، مما جعله أثبت من الجبال رسوخاً، وأقوى من الشمس دواماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبذلك تمت معجزة من معجزات القرآن الكريم حيث شهدت البشرية كلها تحقق الآية الكريمة من قوله الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

(*) مجلة حضارة الإسلام - العدد الثامن - السنة الثامنة - شوال ١٣٨٧هـ - كانون الثاني ١٩٦٨م.

وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩] لما يئس أعداء الإسلام من الدس على كتاب الله والتشكيك فيه اتجهوا نحو المصدر الثاني من مصادر الإسلام وتشريعه، وهو سنة رسول الله ﷺ، فبذروا في النفوس الضعيفة والجاهلية بذور الشك فيها من نواح متعددة ظانين أنهم بذلك يهدمون من هنا أهم صرح في بنيان الفقه الإسلامي وهو التراث الإسلامي الخالد الذي لا تملك أمة من أمم الأرض عشر معشاره، وقد بدأت هذه المحاولات من أعداء الإسلام منذ القديم ثم استمرت في مختلف العصور، واشتدت في عصرنا هذا فتلقفها دجالون ماهرون، ورددها أغبياء من أدعياء الإسلام جاهلون مغروررون، ولكن الله الذي حفظ كتابه حفظ سنة رسوله أيضاً إذ هي شرح له وتبيان لمراده، فهيأ لها في كل عصر وبخاصة في عصر التابعين فمن بعدهم علماء كل واحد منهم معجزة من معجزات رسول الله ﷺ في قوة حفظه، وحدة ذهنه ونباهة عقله، ويقظة بصيرته، فنقوها من الزيف، وخلصوها من الدخيل، وميزوا بين صحيحها وحسنها وضعيفها وموضوعها، ودونوها في الكتب، وأنشأوا لها العلوم حتى زادت علوم السنة على خمسين علماً، فكانت جهودهم في ذلك مفخرة من مفاخر العقل الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقد اعترف بذلك المنصفون من غير المسلمين عرباً وغربيين.

إن الدوائر الاستشراقية التبشيرية الاستعمارية تحاول اليوم من جديد إثارة زوبعة مصطنعة حول السنة، فأحياناً يقولون إنها لم تكتب إلا في منتصف القرن الثالث ظانين من جهلهم أو تجاهلهم أن الإمام البخاري رحمه الله أول من دونها وجمعها وقد توفي عام ٢٥٦ من الهجرة، مع أن البخاري رحمه الله كان أول من أفرد الصحيح بالتدوين لا أول من دونها، وإلا فقد أثبتت الدراسات العلمية والتاريخية أن كتابة السنة قد بدأت منذ عهد رسول الله ﷺ ثم أخذ التابعون وهم تلاميذ الصحابة يكتبون في صحف لهم ما سمعوه من الصحابة، وهكذا حتى انتهى الأمر إلى الإمام مالك والبخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وغيرهم.

وأحياناً يثير أعداء الإسلام الشبه حول السنة بأنها تضمنت فضائل عدة من الصحابة وقع الخلاف ثم القتال بينهم كما هو معلوم فهم يرون أن كل أحاديث الفضائل من رجال ومدن وقبائل قد وضعها أنصارها على لسان رسول الله ﷺ. وإذا تطرق الشك إلى صدق رواتها ولو في بعض المواضيع فقد تطرق الشك إليها كلها كما يزعمون، مع أن علماءنا الأقدمين رحمهم الله وجزاهم الله عنا وعن الإنسانية خير الجزاء، قد فطنوا لذلك من أول الأمر، فميزوا الصحيح من أحاديث

الفضائل عن المكذوب منها بأسلوبهم العلمي الدقيق الذي لم يستطع العلم الحديث أن يأتي بخير منه بل إن أحد أساتذة التاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت في عصرنا هذا قد ألف كتاباً في مصطلح التاريخ حاول أن يضع فيه قواعد علمية لمعرفة الأخبار الصحيحة من المكذوبة فلم يجد أدق ولا أصدق ولا أصح من القواعد التي وضعها علماء الحديث المسلمون قبل اثني عشر قرناً في نقد الأحاديث وتمييز صحيحها من المكذوب فيها. فاعترف بذلك صراحة في كتابه.

وهكذا رد الله كيد أعداء الإسلام في نحورهم باعتراف مؤرخ غير مسلم، وربما اتهم عند من يعرفه بالعصبية لدينه ومذهبه، وبناء على قواعدنا العلمية التي وضعها علماء الحديث الأقدمون لم يبق مجال للشك في أحاديث الفضائل التي أثبت النقد العلمي صحتها، وأي مانع عقلًا في أن يخص الله بعض الأقاصي أو البلدان أو القبائل بفضائل لا توجد في غيرهم فيشير إلى ذلك رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وهذا أمر مشاهد معلوم. ومما سلكه أعداء السنة للتشكيك فيها إثارتهم الشبهات حول أعظم رواتها وحملتها ومدونيها كما أثاروا الشبهات حول الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله،

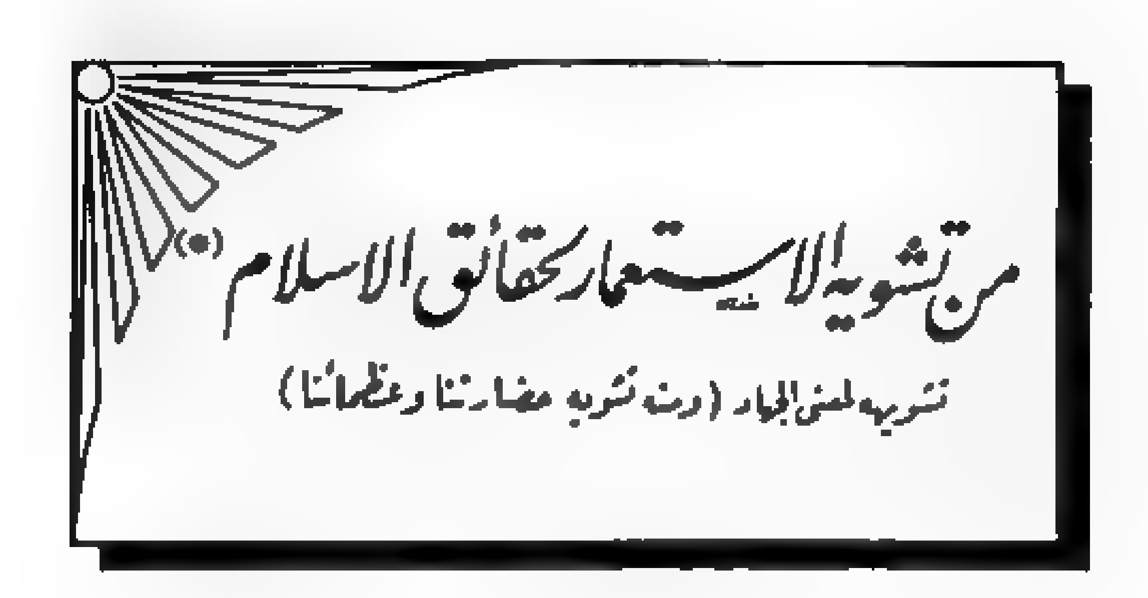
وكما أثاروا الشبهات حول الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الإمام الثبت الحجة الذي دون السنة في عهد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه بأمر منه، وقد أجمع كل الذين عاصروه وعاشروه بأنه كان من أذكى الناس وأشدهم حفظاً حتى ليكتفي بالمرة الواحدة في سماعه الحديث فيحفظه ومع ذلك فقد كان يكتبه في صحف عنده، كما أجمعوا على أنه من أتقى الناس وأصدقهم لهجة.

ولقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده المتصل إلى الشافعي رحمه الله ثم إلى الزهري أن هشام بن عبدالملك سأل بعض جلسائه من أهل العلم: من الذي تولى كبره منهم أي كبر الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟ فقالوا له: هو عبدالله بن أبي بن سلول المنافق، فقال هشام: كذبتم إنما هو علي بن أبي طالب ـ ويظهر لي أن هشاماً كان يختبر شدة جلسائه من أهل العلم في قول الحق، فقالوا: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، ثم دخل الزهري. فسأله ذات السؤال، فأجابه بما أجابوه، فلما قال له هشام كذبت: وقف الزهري غاضباً وقال للخليفة: أنا أكذب؟ لا أبا لك! والله لو أن منادياً ناداني من السماء بأن الله أحل الكذب ما كذبت. ثم خرج وذكر ابن عساكر بقية القصة وكيف استرضاه الخليفة

بإسقاط مائتي ألف درهم من دين كان عليه، فهذا الإمام العظيم الذي رأيتم موقفه من الخليفة حين اتهمه بالكذب لم يتورع شيخ المستشرقين في القرن الماضي جولد تسيهر بأن يتهمه بأنه كان يضع الأحاديث إرضاء للأمويين، وأنه هو الذي وضع لعبدالملك بن مروان حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، ليصرف الشاميين عن حج بيت الله الحرام إلى بيت المقدس أيام ابن الزبير مع أن هذا الحديث رواه عن الزهري وخرجته كتب السنة الصحيحة حتى قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن هذا الحديث أجمع المسلمون على صحته.

إن الوقاحة التي حملت ذلك المستشرق اليهودي المجري على اتهام الزهري بالوضع، ما حمله عليها إلا محاولته التشكيك بالسنة بل جاء به في هذا الصدد ذاته، ودليلًا على مراده الخبيث ذاك. ومن المؤسف أن بعض من ينتمون إلى الإسلام وقعوا في هذه الشباك إما غفلة وإما اتباعاً للهوى كما فعل مؤلف كبير توفي منذ سنوات وأسأل الله أن يغفر له سيئاته، وإما عمالة ورغبة في الشهرة، كما فعل في السنين الأخيرة جاهل مغرور جعل دأبه الطعن على أبي هريرة والتشكيك في صدقه فاحتضنته دوائر الاستشراق الاستعمارية التبشيرية وبعض الفرق الإسلامية التي لها رأي خاص في هذا الصحابي الجليل.

أيها الأخ المؤمن: إن سنة رسول الله ﷺ درع حصين يقي المسلمين أخطار الفوضى والضلال والانحلال والضياع، وإن أعداء الإسلام وهم حريصون على ضلالك وانحلالك يعملون اليوم في مختلف دوائرهم واتجاهاتهم على هدم سنة رسولك ﷺ عن طريق التشكيك برواتها من صحابة وتابعين فاستمسك بالحق الذي عليه جمهور هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وحارب كل دعوة ترمي إلى التشكيك بصحابة رسولك وحملة العلم من بعدهم، واعرف أن وراءها الداء العضال والسم القاتل، واعتصم بالذي هو خير، ومن يعتصم بالله ورسوله فقد هدي إلى صراط مستقيم. والحمد لله رب العالمين.



من أعظم ما شوهه الاستعمار من حقائق الإسلام وتاريخه، تشويههم لمعنى الجهاد في الإسلام وللأغراض التي توخاها الإسلام في فتوحاته، وللأهداف التي كان يسعى إليها قادتنا الحربيون وحكامنا الإداريون. وإنهم يشيعون فيما يكتبون ويحاضرون أن معنى الجهاد في سبيل الله عند المسلمين هو حملهم السيف لإكراه الشعوب على الإسلام. وقبل أن نتعرض للوقائع التاريخية للجهاد الإسلامي، يجب أن نذكر مبادىء الإسلام في حرية العقيدة وعدم جواز إكراه أحد على الإسلام يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد التاسع ـ السنة الثامنة ـ ذو القعدة ١٣٨٧هـ ـ شباط ١٩٦٨م.

﴿ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ويقول مخاطباً رسوله لتهدئة عواطفه المتأججة ورغبته الشديدة في إيمان قومه ودخولهم في الإسلام: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ويقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ويقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٣] وهكذا تتوالى الآيات على معنى واحد من أنه لا إكراه في الدين لأن مقر الدين والعقيدة هو القلب ولا يمكن لأية قوة في الدنيا أن تسيطر على عواطف القلب وميوله واعتقاداته.

ولقد قرر فقهاء الإسلام أنه لا يصح إيمان المكره. وحدث في التاريخ الإسلامي أن بعض الأمراء المسلمين في إحدى مقاطعات الأندلس خطر له أن يحمل اليهود على الدخول في الإسلام ففر فريق منهم بعد إعلانهم الإسلام إلى خارج الأندلس، وكان فيمن فر إلى مصر بعد إعلان إسلامه الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون، واتفق أن كان ماراً بأحد شوارع القاهرة فرآه اثنان من الأندلسيين ممن كانوا عرفوا دخوله في الإسلام. رأياه في هيئة اليهود وزيهم فأمسكا بتلابيبه وأخذاه رأساً إلى قاضي القضاة ليقيم فيه حكم الإسلام في المرتد، فاستفتى

القاضي علماء القاهرة وكان فيهم الإمام العالم ابن دقيق العيد، وكان أشهر علماء زمانه وأتقاهم وأبصرهم بدين الله، فأفتى العلماء جميعاً وفيهم الشيخ الإمام ابن دقيق العيد بأنه لا ينفذ في موسى بن ميمون اليهودي حكم المرتد ولو أعلن إسلامه في الأندلس لأن دخوله في الإسلام كان اضطراراً فلا عبرة بإسلامه.

وهنا نقطة لا بد من التعرض لها وهي: أنه إذا كان الإسلام لا يكره الناس على الدخول فيه فلماذا يحكم بقتل المسلم إذا ارتد عن الإسلام؟ والجواب أن الإسلام ليس مجرد عقيدة في القلب بل هو نظام اجتماعي شامل لكل شؤون الحياة، وتقوم عليه الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، فإعلان الخروج عليه ثورة على النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه الدولة. وترك المرتد بدون عقوبة يشجع ضعاف الإيمان على الخروج على هذا النظام الاجتماعي ويؤدي إلى الفساد والفتنة، فكان من الواجب حسم الشر من أساسه، فإذا أعلن مسلم ردته عن الإسلام وأصر على ردته بعد أن يترك ثلاثة أيام على رأي جمهور الفقهاء ليناقش علماء الإسلام في الشبهات التي عرضت له، وأزال علماء الإسلام كل شبهة فكرية له حول الإسلام ثم أصر على عناده وإعلان ردته كان معنى ذلك أنه لم يرتد عن شبهة بل إثارة للفتنة وزعزعة للنظام

الاجتماعي القائم، فلا يلام الإسلام حينئذ إذا حكم بقتله. ونحن نسأل المنتقدين على هذا الحكم لو أن رجلًا في أي بلد مثلًا أعلن ثورته وتمرده على نظامها وبدأ يدعو الناس إلى ذلك مبيناً فساد النظام القائم فيها أيكون مصيره أقل من القتل؟

إن استقرار النظام الاجتماعي في كل مجتمع هو أساس سعادته ورخائه، ونقد ما لا يمس مبادىء النظام الأساسي يبينه الإسلام في حدود القوانين والآداب العامة. ولذلك لا يحكم الإسلام بقتل من لم يعلن ردته أو لم يدع الناس إلى الخروج عن الإسلام لأن الإسلام لا يبيح التفتيش عن الضمائر والقلوب بالحديد والنار.

ولا يمنع الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يوجب وجود فئة في الأمة تقوم بهذا الواجب عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهذا على رأي جمهور المفسرين من أن في قوله تعالى منكم للتبعيض أي أن هذا الواجب يكفي فيه أن يقوم به بعض أبناء الأمة، أما على الرأي الآخر الذي يفسر الآية بأنه يجب أن تكونوا أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيصبح ذلك واجباً على كل من يستطيع وفقاً للحديث

الصحيح عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وجملة القول:

إن الإسلام لا يجيز إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام ولذلك كان من مبادئه في قتال الأعداء أن يبدأ بدعوتهم إلى الإسلام. فإن أبو فالجزية، وهو مبلغ ضئيل يرمز إلى اشتراك غير المسلمين في نفقات الدولة مع الخضوع لسلطاتها وسيطرتها، فإن أبو فالقتال. ولو كان الجهاد في الإسلام لإجبار غير المسلمين على الدخول فيه لاكتفى بأحد أمرين إما الإسلام وإما القتال، ولكن جعل بينهما دفع الجزية لتكون فرصة للتعرف على الإسلام لمن لم يعرفه من قبل، وليكون إسهاماً في نفقات الدولة لمن غلب على أمره، وليشترك مع بقية المسلمين في حق التكافل الاجتماعي الذي يفرضه الإسلام لكل عاجز عن العمل، لمرض أو شيخوخة أو بطالة، يقول أعداء الإسلام: إن الزام غير المسلم بدفع الجزية يؤدي حتماً إلى دخوله في الإسلام فراراً من دفعها، ونحن نقول لهم إن الجزية كانت نظاماً سائداً في العالم كله يدفعه المغلوب للغالب، ولم يكن فيه من معنى الإنسانية شيء بل كان عنوان الإذلال والقهر ووسيلة ابتزاز لأموال المغلوبين، فحولها الإسلام إلى

معنى إنساني نبيل، إلى أنها ثمن الحماية لأعراض المغلوبين وأموالهم ودمائهم وعقائدهم وتعويض عن عدم اشتراكهم في الحروب الإسلامية، وهذا من أظهر عدالة الإسلام، فالجيش الإسلامي يحارب من أجل عقيدة فكيف يجبر من لا يؤمن بتلك العقيدة، على أن يبذل في سبيلها دمه، ويفارق أهله وأمواله والجزية تلزم الدولة الإسلامية بأن تجعل للذمي حقاً في التكافل الاجتماعي كالمسلم الذي يدفع الزكاة وهي التي لا حد لها بالنسبة إلى مال الموسر إذ هي اثنان ونصف بالمائة من ماله بينما الجزية أعلاها ثمانية وأربعون درهماً، ويقول أعداء الإسلام أن الواقع الثابت أن كثيراً من أهل الذمة دخلوا في الإسلام لئلا يدفعوا الجزية، وجوابنا على ذلك أن ربط دخولهم في الإسلام بعدم رغبتهم في دفع الجزية أمر ظاهري، والحقيقة أنهم كانوا غير راضين عن دياناتهم وخصوصاً بعد أن علموا عقيدة الإسلام على وجهها الصحيح. ورأوا أحكامه تنفذ في الدولة بشكل يضمن الأمن والاستقرار مما لم يعرفوه من قبل في ظل حكوماتهم، ولو كانوا راضين عن دينهم لما هربوا منه لقاء مبلغ الجزية الزهيد، خصوصاً وأنهم في دخولهم في الإسلام ستؤخذ منهم الزكاة وهي أضعاف مضاعفة بالنسبة إلى الجزية فدخولهم في الإسلام يزيد في أعبائهم المالية ولا يخفف منها. وقد أكد لي هذا المعنى ما شهدته

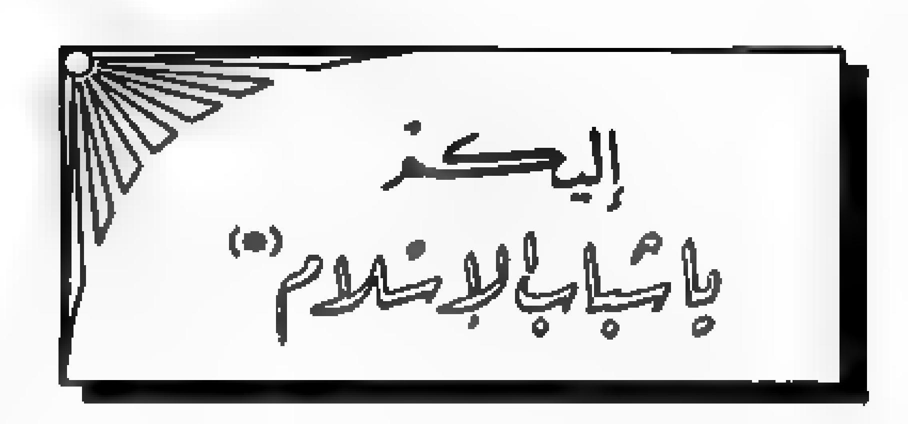
بنفسي في أوروبا خلال رحلاتي المتعددة فقد رأيته في كل بلد تأخذ فيه الحكومة ضريبة من الشعب باسم الكنيسة كألمانيا الغربية والنمسا، ولقد تأكد لي أن عدداً كبيراً من سكان هاتين الدولتين سجلوا أسماءهم في سجلات الدولة بأنهم لا يدينون بدين وذلك فراراً من دفعهم ضريبة الكنيسة، أترى هؤلاء لو كانوا راضين عن دينهم مقتنعة به عقولهم وضمائرهم أكانوا يتهربون من دفع تلك الضريبة وهي مبلغ زهيد ويسجلون أنفسهم لا دينيين؟

وبعد فإن الإسلام دين الحياة الكريمة السعيدة وقد بعث الله به رسوله محمداً ﷺ رحمة للعالمين لينقذهم من الضلال إلى الحق ومن الظلام إلى النور، فكانت رسالة الجيوش الإسلامية في فتوحاتها رسالة إنقاذ وتحرير وقد كان الملوك والرؤساء ورجال الدين في تلك العصور هم الذين يحولون بين شعوبهم وبين تحررهم بالإسلام فكانت الحروب الإسلامية في الحقيقة لإزاحة العقبات من طريق الشعوب حتى لا يكون بينها وبين رؤية الحق حائل.. وهذا هو الذي كان.

فقد كانت رسالة رسول الله ﷺ إلى كسرى أسلم تسلم وإن توليت فإنما عليك إثم المجوس وذلك لأنه كان كل شيء في حياتهم ويسخرهم لأهوائه وشهواته ولا

رأي لهم في قبول دعوة الإسلام أو رفضها بل كان يمنعهم من النظر فيها. وكذلك كان قيصر. فكانت حروبنا مع فارس والروم حرباً مع كسرى وقيصر لا مع شعبي فارس والروم. فلما زال كسرى أسلم الفرس ولما انهزم قيصر دخل أكثر روم سوريا ومصر وإفريقيا وغيرها في الإسلام.

إن أوروبا في العصر الحديث استباحت احتلال بلاد الشعوب الضعيفة بحجة تمدينها ثم كان تاريخ احتلالها لها إذلالاً وإفقاراً وإفناء، فلماذا لا يستحيون من ذلك ويشنعون علينا فكرة الجهاد في الإسلام، وهي في الحق للتحرير والإنقاذ كما أثبت التاريخ؟ إنهم يتعمدون قول الزور عنا لأنهم أقوياء، فمتى نصبح نحن أقوياء لنقول مقالة الحق فيهم؟ إن أول القوة أن لا نخجل من حقنا ولا نفزع من افتراءاتهم وأن نكون واثقين من ديننا وحقنا، فافعلوا ذلك يا شباب الإسلام وفتياته والسلام عليكم ورحمة الله.



لقد رأينا عظمة الإسلام في أصوله وأحكامه وأهدافه وأثره في نقل أمتنا من هامش التاريخ إلى صميم التاريخ. ومن نقل العالم الذي وصل إليه نوره من ظلام حالك وعيش تعس وحياة تائهة إلى نور ساطع وعيش رغد. وحياة عاملة كريمة.

ولقد رأينا جهد أعداء الإسلام في طمس معالمه وتشويه حقائقه لتنصرفوا أنتم خاصة يا شباب الإسلام وفتياته ولينصرف المسلمون عامة عن هذا المصدر العظيم من مصادر قوتهم ومبعث نهضتهم وحضارتهم. فكم جدير بنا أن نعود إلى الإسلام من جديد نفهمه من مصدريه الخالدين كتاب الله وسنة رسوله فهماً واعياً

(*) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد العاشر ـ السنة الثامنة ـ ذو الحجة ١٣٨٧هـ ـ آذار ١٩٦٨م.

متحرراً من كل آثار الشبهات التي أثارها أعداؤه في عقولنا، مهتدين في ذلك بسيرة السلف الصالح من صحابة وتابعين ومن بعدهم ممن كانوا أئمة الهدى للعالم كله في عصرهم، وأركان الحضارة الإسلامية التي أسعدت الناس وأمنتهم على عقائدهم وأرواحهم وأموالهم وكرامتهم.

إن الإسلام في كل ما جاء به من تشري إنما يقصد إلى توفير خمسة أشياء لكل إنسان يعيش في ظل دولته: حفظ دينه، وحفظ عقله، وحفظ نفسه، وحفظ ماله، وحفظ عرضه، هكذا يقول فقهاؤنا الأقدمون رحمهم الله ونستطيع أن نعبر عنها بالتعبير الذي يلائم أذواق عصرنا أن تشريع الإسلام كله يهدف إلى ضمان خمسة حقوق لكل مواطن في دولة الإسلام: حق الحياة، وحق الحرية، وحق العلم، وحق العمل، وحق الكرامة، تلك هي ما جاء الإسلام لتحقيقها لكل مسلم وغير مسلم في ظل دولته، ولو أمعنتم النظر في هذه الحقوق الخمسة لما وجدتم شيئاً تتم به سعادة الإنسان يخرج عنها، ولرأيتم أن جميع المبادىء التي فتنت الناس عن دينهم وظنوا أنها من مبتكرات هذه الحضارة الغربية التي تضمن لهم سعادتهم، لا تخرج عن هذه الحقوق الخمسة التي يدور تشريع الإسلام حولها ويؤكد عليها، مع فارق كبير بين

الإسلام وبين هذه المبادىء التي فتنت كثيراً من الغافلين، ذلك أن هذه المبادىء التي تنادي بها الحضارة الغربية على أنها أساس سعادة الإنسان إنما تفهم السعادة سعادة مادة لا روح فيها من لباس جيد، وغذاء جيد، ومسكن جيد، ومورد مالي حسن، بينما الإسلام وهو يعترف بأن هذه الأشياء من سعادة الإنسان في دنياه وهو يسعى لتحقيقها لكل الناس، يرى أن هذه المطلوبات المادية ليست هي كل السعادة، فكم من إنسان أوتي سعة في الرزق، ورفاهية في العيش هو في نفسه أشقى الناس وأتعسهم، ولذلك يكثر في أمثال هذه الطبقة الانتحار، وقد أثبتت الاحصاءات أن سكان البلاد السكندنافية - أي الدانمارك ونروج والسويد - وهم أكثر الشعوب الأوروبية رفاهية وليس فيهم عاطل عن العمل ومتى بلغ كل واحد منهم سن الستين أعفي من عمله أي عمل كان حراً أم حكومياً وأجري عليه رزقه ونفقاته حتى يموت، ومع ذلك فقد أثبتت الاحصاءات أن سكان هذه البلاد هم أكثر بلاد العالم انتحاراً ينتحرون مللًا من معيشتهم الرتيبة، فليس عندهم شيء يشغلهم بعد ذلك فينتحرون.

إن الإسلام كما قلت لكم مع اعترافه بأن سعادة الإنسان تأمين حياته ونفقاته ونفقات أولاده وقد وضع لذلك نظماً وقوانين هي خير ما وجد بما لا تصح معه

المقارنة. مع هذا يرى الإسلام أن للإنسان أشواقاً روحية لا تتم سعادته إلا بتحقيقها، فالسعادة في الإسلام تتم بكل معانيها حين يقوم المسلم بحق عبوديته لله عز وجل من صلاة وصيام وذكر وقراءة لكتابه وسنة رسوله واستزادة من العلم وعمل للخير مع الناس كافة، حتى مع الحيوانات. فهذه الأعمال وأمثالها إذا صحبتها النية الخالصة ابتغاء وجه الله ورجاء مثوبته كانت عبادة يجد المؤمن من اللذة والنشوة في أدائها ما يرى معه نفسه من أسعد الناس، ولقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول بعد الفراغ من تهجد الليل: نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها، نعم إنها للمؤمن العارف بحقوق الله، القائم بكل ما أمر الله به لذة لا تعادلها لذة مهما تعب في سبيلها. وهذه اللذة تستمر مع المؤمن حتى يلقى الله، فهو لا يأتي عليه يوم يمل فيه من الحياة مهما كانت حياته مرفهة وطويلة أو أن يجد الملل في حياته، وهو في كل يوم بل في كل ساعة، بل في كل لحظة، في لذة جديدة يتمنى معها بقاء الحياة ولو كان مقتراً عليه في الرزق، هذا هو أحد الفوارق بين قوام السعادة في الإسلام وقوام السعادة في الحضارة الغربية، وفرق آخر أن مقومات السعادة في الحضارات الأجنبية بعيدة كل البعد عن المعاني الإنسانية التي كان الإنسان بها أكرم من الحيوان وأسعد، بل إنك لتشعر أنه قد ماتت فيه

كل معاني الرحمة والشفقة والعطف والإيثار. إنهم يعتبرون هذه الأخلاق عنوانِ ضعف الإنسان، ولذلك لا تجد لها أثراً بينهم، ولقد شهدتهم في بلادهم لا يسألون عن جيرانهم ولا يهتمون بهم بل لا يسألون عن أقربائهم ولا يهمهم من أمرهم شيء، فهل ترون هذه الحياة التي يحيونها حياة إنسانية كريمة تتفق مع ما فطر الله عليه الإنسان من غرائز الرحمة والإيثار والحب والتعاون على سراء الحياة وضرائها؟ أم هي أشبه بالحياة الحيوانية التي لا تندفع إلا وراء غرائزها من طعام وشراب ولذة؟..

إن السعادة التي يجدها المسلم في ظل الإسلام، لو طبق تطبيقاً صحيحاً كما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته والسلف الصالح من بعدهم، لا يمكن أن تعادلها سعادة في مبدأ من مبادىء الحضارة أو دين من الأديان.

فلا تفتشوا عن السعادة وعندكم حقيقتها وعند غيركم قشورها وبريقها وخداعها، لا تحاولوا أن تكونوا سعداء بتقليدكم لهؤلاء الغربيين في كل شيء، فلو كانت السعادة في حضارتهم وأخلاقهم لأسعدتهم قبل غيرهم، ولكنهم الآن تعساء حائرون، وأين يجدون السعادة؟ أفي هذه المستشفيات العقلية التي تتكاثر يوماً بعد يوم؟ أم في هذه المستشفيات التي تغص بمرضى الانهيارات العصبية

التي تتزايد يوماً بعد يوم؟ أم في هذه العيادات النفسية التي يتكاثر أطباؤها سنة بعد سنة؟ أم في هذه السجون التي تستقبل في كل دقيقة قاتلًا أو سارقاً أو جانياً؟ اسألوا أنفسكم يا شباب ويا فتيات أهذا كله من علائم السعادة في مبادىء هذه الحضارة وأخلاقها؟ أم من علامة الشقاء والبؤس والتعاسة؟

إن كثيرين من حملة القلم يتظاهرون لكم بالتحرر والتجدد، ويثيرون فيكم غرائز الجنس مستغلين فيكم مرحلة المراهقة، وهم إنما يريدون بذلك ترويج كتبهم ليملؤوا جيوبهم على حساب شرفكم وشرف دينكم وأمتكم فهم أخس تجار الأرض يدخلون إلى قلوبكم وعقولكم من باب الحرية الشخصية التي كذبوا عليكم في تصويرها وتعريفها، ثم كذبوا عليكم في إخفاء نتائجها المفجعة في المجتمع الغربي، إذ كثيراً ما أدت هذه الحرية الجنسية والاختلاط والفلسفة الجنسية التي ينادون بها إلى أن يسرق الأخ زوجة أخيه، والصديق زوجة صديقه، والأب زوجة ابنه، فبئست هذه الحرية التي تنتهي بأن يسرق الإنسان أشرف وأغلى شيء لدى أحب الناس إليه وأشدهم قربى وكم نشأت عن ذلك من مآسي اجتماعية وأخلاقية انتهت إلى كثير من الجرائم من قتل أشخاص وتشريد أسر، وشقاء عائلات. لا يا شبابنا ويا

فتياتنا إنكم تؤمنون بدين وضع حدوداً مشروعة لعلاقة الرجل بالمرأة، وإنكم من أمة احتفظت بشرف أسرها وسمعتها أربعة عشر قرناً فلا تضعن حداً لهذه السمعة العالية المشرفة بانسياقكن وراء الإغراء الكاذب والتحريض الفاجر، حتى تصبحن مثل أولئك الغربيات الضائعات الشقيات التي تموت الواحدة منهن في اليوم مائة ميتة غيرة ممن يعاشرهن زوجها ويذهب ويجيء معهن.

نحن نريد لكم بالدعوة إلى الإسلام أن تصنعوا تاريخنا من جديد، أن تصنعوا أمجادنا من جديد، أن يكون لنا أبطال جدد وبطلات جديدات نفاخر بهم ونهز الدنيا، ولكن أعداء الإسلام وأذنابهم يريدون لكم أن تكونوا نسخة مشوهة من أولئك الغربيين الأشقياء، نسخة تضيع معالمها، وتضيع شخصيتها. فأي الدعوتين أكرم لكم وأي الطريقين يؤدي إلى قوة أمتكم واحترام العالم لها.

إننا ندعوكم لأن تعتزوا بهذا الإسلام وبتاريخه العظيم وبحضارته الخالدة، وبذلك وحده تفرضون احترامكم على أعداء الإسلام وأعداء أمتكم، فالذي لا يحترم نفسه لا يحترمه غيره، والذي يحتقر نفسه أولى أن يحتقره غيره، ولقد سمعتم من حقائق الإسلام ما يرفع رؤوسكم عالياً فلا تخفضوها وقد رفعها الله، ولا تحتقروا

تراثكم وقد أنصفكم التاريخ، واذكروا دائماً قول عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، اعتزوا بالإسلام شباباً وفتياناً شيباً وكهولاً، ولينصرن الله أمة نصرت دينه. إن الله يدافع عن الذين آمنوا، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وحسبنا الله ونعم الوكيل ووداعاً والسلام عليكم.

فيا ربِّ استخدمنا لنصرة دينك

وإعلاء كلمة الحق بإذنك

اللهم آمين

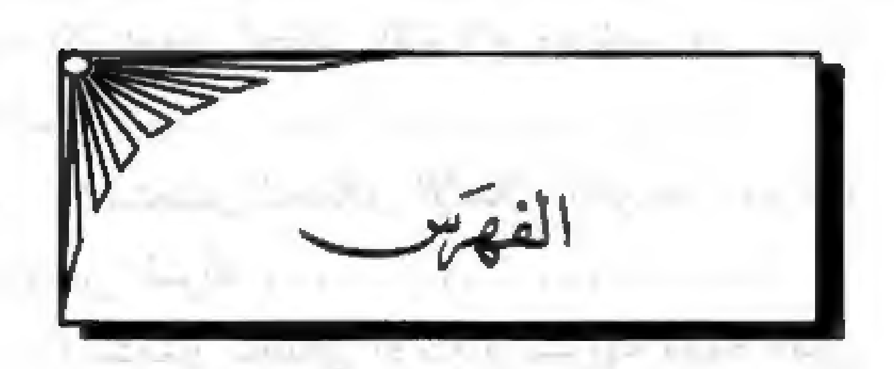
والحمد لله رب العالمين

فجر الجمعة

٨/تشرين الثاني/ ٢٠١٩م

١١/ربيع الأول/ ١٤٤١هـ

٥:٢٠ فجراً



الفهرس

الموضوع	الصفحة

مع ازدياد وتيرة التقدم العلمي وتحول العالم إلى (قرية صغيرة) في ظل نظام الكوكبية الجديد تبرز أسئلة كبرىٰ:

هل تتحقق في الإسلام شرائط الدين العالمي؟

هل هو واضح الأهداف والمعالم؟

هل كفلت أهدافه تحقيق السعادة لجميع الشعوب بلا استثناء؟

هل فيه من المرونة ما يجعل تطبيقه وتحقيق أهدافه ممكناً في كل الأزمنة والعصور؟

ما صحة ما يثار حول الإسلام من شُبه؟

هذه الإشكاليات وغيرها يتعرض لها الكتاب بأسلوب أخاذ يجمع بين حكمة الفيلسوف وعاطفة المربي نقدمه زاداً معرفياً لكل من يجد في نفسه الرغبة بالتعرف علىٰ أبجديات الدين الإسلامي ومقاصده وواقعيته بقلم عرف صاحبه بأنه رائد الفكر والدعوة في بلاد الشام، ويبقىٰ للقارىء رأيه الذي نحترمه في هذه الأوراق العلمية.